

## موجز تاريخ الإسلام

السيد محمد المهدي الشيرازي ( قدس سره )

### مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

وبعد، لقد رأيت أن أخص كتاب (حضارة العرب) لمؤلفه: (غوستاف لوبون) لأمرين:

الأول: إخراج ما يخالف الواقع منه..

الثاني: جعله سهل التناول لمن أراد موجز تاريخ الإسلام وحضارته في بعض جوانبه،

وسميته

(موجز تاريخ الإسلام). والله المستعان.

كربلاء المقدسة - محمد الشيرازي

1389 هـ

## الفصل الأول

### تاريخ الجزيرة العربية

#### جغرافية جزيرة العرب

جزيرة العرب هي مهد الإسلام، وهي منبت الدولة الواسعة التي أنشأها خلفاء النبي محمد (صلى الله عليه وآله). ويتألف القسم الأكبر من جزيرة العرب من صحار يحيط بها البحر الأحمر من الغرب، وبحر عُمان والخليج الفارسي من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، وتتصل من أقصى غربها وشرقها بأفريقيا وآسية.

ولذا تكون الجزيرة العربية محاطة بثلاثة أبحر موزعة على جهاتها الثلاث (الغرب والشرق والجنوب). وأما حدّها الشمالي فغير واضح، وهو يمتدّ تقريباً باتجاه الخطّ الذي يبدأ من مدينة غزة الفلسطينية الواقعة على ساحل البحر المتوسط ماراً بجنوب البحر الميت، فدمشق، فالفرات وينتهي بخليج فارس.

ويبلغ طول جزيرة العرب من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها نحو 23 درجة أو 2500 كيلو متر، ويبلغ عرضها من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي نحو ألف كيلو متر.

وتزيد مساحة جزيرة العرب على 3.000.000 كيلومتر مربع، أي تزيد على مساحة فرنسا ستّ مرات.

وليس لدينا إحصاء موثوق لنفوس جزيرة العرب في الوقت الحاضر، وقد قُدِّرَتْ منذ بضع سنين بعشرة ملايين، ولم تزد على خمسة ملايين في أحد المؤلّفات<sup>(1)</sup> وخمس هؤلاء السّكان – على الأقل – هم من البدو الرّحل.

1 – هذه الإحصاءات قديمة جداً.

ونحن إذا نظرنا إلى سطح جزيرة العرب، رأينا مؤلفاً من هَضْبَةٍ تشبه الصحراء الأفريقية في اتساعها وسهولها القاحلة الرملية، أو الصخرية، التي تتخللها بقاع زراعية. وتنحدر هذه الهَضْبَةُ إلى الخليج الفارسي.

ويقطع مجاهل (2) جزيرة العرب الواسعة، أودية وبقاع جبلية ذات مدن وقرى يسكنها فريق من الزرّاع، ولا تعرف الصحراء غير البدو الذين يجوبونها بحثاً عن الماء الكلاً.

وتقع في وسط تلك الهضبة العربية بلاد نجد التي تُعدّ جزيرة خصبّة تحيط بها الفلوات والجبال بدلاً من الماء.

ويُظنّ أن نحو نصف جزيرة العرب مؤلف من بقاع خصبّة بينما يتكون النصف الآخر من صحار قاحلة، وإن دلّت الخرائط على اتساع الصحارى وانقباض رُقعة البقاع الخصبّة. وما في الخرائط من التفاوت ناشئ عن قلة ارتياد علماء الجغرافية لجزيرة العرب واضطرارهم إلى ترك البقاع المجهولة منها.

والجذبُ والحرّ، من أظهر ما عُرفت به جزيرة العرب منذ القديم. والجذبُ على الخصوص، هو أشدّ ما تعانيه. ولم ينشأ عن قطع أشجار غاباتها بالتدريج سوى زيادة القحط، كما في بلاد الجزائر الخصبّة في العهد الروماني والجذبة في الوقت الحاضر.

ويدوم المطر في جزيرة العرب بضعة أشهر على العموم. ومتى احتبس، عم الخراب وأصبحت تلك البلاد غير صالحة للسكن تقريباً. ويقترن القحط في جزيرة العرب بريح السموم في الغالب، وريح السموم وقلة الماء هما أشدّ الأخطار التي تواجه القوافل في جزيرة العرب.

وتكون درجة الحرارة في جزيرة العرب مرتفعة عادة، فلا تهبط في الصحراء عن 43 نهراً و38 ليلاً، ولكنها تكون معتدلة في الأماكن الجبلية أو القريبة من البحر، فقد شاهد (نبيوهر) أن الحرارة في اليمن لا تزيد في أواخر شهر تموز على

2 - مجاهل: جمع (مجهل)، والمجهل: المفازة لا أعلام فيها. انظر (المعجم الوسيط).

29 درجة بمقياس سنتيغراد، ويكون البرد في صنعاء قارساً في الشتاء. فالجفاف والجوّ المحرق، ليسا سائدين في جزيرة العرب كلّها. إذ هناك بقاع متسعة اتساع الدول الأوربية المهمة، كثيرة الخصب كبلاد اليمن وبلاد نجد التي لم يرَ (بلغريف) أفضل من جوها الصحي في العالم.

### منتجات جزيرة العرب

التمر والبُنّ من أهم ما تنتجه جزيرة العرب. ويعتمد سكّانها على التمر في طعامهم، وعلى البُنّ في اغتنائهم، ويستفيد العرب منذ القديم مما يُصدرون من اللّبان (3) والسليخة (4) والسّنا المكي (5) والأدهان.

ولاختلاف جوّ جزيرة العرب ينبت فيها مثل نبات البلاد الحارة والبلاد المعتدلة، كالقطن وقصب السكر والجُمَيْر والطلح والدردار (6) والمرّان (7)، الخ. ويندر شجر الغاب في جزيرة العرب، والنخل أظهر ما فيها، وهو الذي يكون به لمناظر الشرق شكل خاص.

وتصلح الأماكن الخصبة من جزيرة العرب لمثل النبات الذي يزرع في أوربا كالشمش والخوخ والتين واللوز والعنب والقمح والذرة والشعير والدخن (8) والفول والتبغ، الخ.

ومع أنّ الزراعة في حقول اليمن جيّدة إلا أن العمل فيها شاقّ لما تحتاج إليه من السقي الدائم بمياه المطر التي تجمع في الآبار وبين السدود.

وتعرف جزيرة العرب مثل ما نعرف من الحيوانات الأليفة كالبعال والحمر

3 — اللبان: الكندر، وهو صمغ شجرة شائكة ورقها كالأس.

4 — السليخة: دهن ثمر اللبان قبل أن يربب.

5 — السنا: نبات كأنه الحناء، زهره مائل إلى الزرقة وحبّه مفرطح إلى الطول، ومنه نوع عريض الأوراق أصفر الزهر وأجوده الحجازي، ويعرف بـ(سنامكة)، ويقال له أيضاً السنا المكي.

6 — الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفلى.

7 — المران: شجر تتخذ منه الرماح.

8 — الدخن: نبات حبّه صغير أملس.

والبقر والضأن والمعز، الخ ولا تجهل جزيرة العرب الكثير من الضواري كالأسود والنمور والفهود.

وعرفت جزيرة العرب في القرون القديمة بوفرة معادنها الثمينة وأحجارها الكريمة، واليوم لم يبق أثر لذلك، ولا نعلم غير ما ينتقل إلينا من الأخبار عن حديدها ونحاسها، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نبدي رأياً قاطعاً في ثروة جزيرة العرب المعدنية، فمعارفنا بها سطحية.

وظلت صناعة قسم من جزيرة العرب وتجارته على ما كانت عليه في القرون الخالية، وتعدّ الحلي اليمنية والتمور والخيول والنيلج(9) والسنا المكي واللبن والمر(10) الصافي، الخ، أهمّ موادّ التصدير من جزيرة العرب، ولا تزال القوافل تقوم، كما في العصر الإسرائيلي، بتصدير هذه المواد من جزيرة العرب إلى أوروبا، وباستيراد ما تحتاج إليه من أفريقيا والهند وبلاد فارس.

وجزيرة العرب خالية من الطرق المعبّدة، والطرق التي تسلكها القوافل فيها هي الأودية أو الأخاديد التي ذكرناها آنفاً، وإذا ما استثنينا هذه المسالك، التي لا تزال كما كانت عليه في الزمن القديم، رأينا نواحي من جزيرة العرب تتعين بآبارها التي تتعذّر الحياة هناك بدونها، وأكثر مسالك جزيرة العرب استطراقاً هي: الطريق التي بين دمشق وبغداد، والطرق التي تبدأ من مدينة الرياض النجدية وتنتهي بمكة ومسقط وبغداد ودمشق.

### أقسام جزيرة العرب

وقسم القدماء جزيرة العرب إلى ثلاثة أقسام:

1 - بلاد الحجر العربية (بطرا)، وهي القسم الشمالي الغربي من جزيرة العرب.

9 — النيلج: شيء يتخذ من نبات العظم بأن يغسل ورق العظم بالماء فيجلو ما عليه من الزرقة ويترك الماء فيرسب أسفله كالطين فيصب الماء عنه ويجفّ.

10 — المر: مائع يسيل من شجرة فيجمد وهو طيب الرائحة مرّ الطعم.

2 - وبلاد العرب السعيدة، وهي القسم الجنوبي الغربي منها.

3 - والصحراء العربية، وهي قلبها وشرقها.

فأما بلاد الحجر العربية (بطرا) فتشتمل على القسم الواقع بين فلسطين والبحر الأحمر، وأما الصحراء العربية فهي تتمثل بالبادية الكبرى التي تمتد من حدود سورية والعراق إلى الفرات فإلى الخليج الفارسي، وأما بلاد العرب السعيدة فتشتمل على القسم الجنوبي من جزيرة العرب، أي على نجد والحجاز واليمن وعمان، الخ. وجهل جغرافيو العرب ذلك التقسيم، فلم يروا بلاد الحجر (بطرا) من جزيرة العرب، فكان التقسيم الوحيد الذي اصطلحوا عليه ما يأتي:

بلاد الحجاز، وهي جبلية رملية، تشتمل على الجزء المتوسط من المنطقة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، ومن بلاد الحجاز مكة والمدينة المقدستان.

وبلاذ اليمن، وهي في جنوب بلاد الحجاز، تتألف من الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب، وبلاد اليمن أغنى جزيرة العرب وأخصبها.

وبلاذ حضرموت ومهرة وعمان والأحساء، وهي تلي اليمن كما يبدو من الخريطة، تمتد من خليج عدن إلى أقصى خليج فارس.

وبلاذ نجد، وهي هضبة خصبة ذات مدن مهمة، تقع وسط جزيرة العرب وتحيط بها الفلوات والمفاوز من كل جانب.

ولا مطابقة بين هذه التقسيمات، التي يرجع أكثرها إلى أقدم أدوار التاريخ، وتقسيم جزيرة العرب السياسي، فقد كان العرب قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) منقسمين إلى ألوف من القبائل المستقلة، ثم قامت الدولة الإسلامية فتألفت من تلك القبائل المتعددة أمة واحدة، ثم عاد سكان جزيرة العرب، بعد زوال تلك الدولة، إلى حالهم السابقة، وأصبحت لا ترى في جزيرة العرب غير إمارات صغيرة وقبائل مستقلة تخضع كل واحدة منها لرئيس واحد، ولا يُستثنى من ذلك سوى الممالك الثلاث: نجد واليمن وعمان.

وبلاذ الحجاز واقعة على ساحل البحر الأحمر وتشتهر على الخصوص بأنها مهد الإسلام وبمكة والمدينة المقدستين اللتين يأتيهما، في كل سنة، ألوف الحجيج من

أقصى نواحي العالم الإسلامي.

وتشتمل بلاد الحجاز على بقاع خصبة، ولكن معظم بقاعها غير ذي زرع، ونرى شريف مكة الأكبر، الذي يقيم بالطائف، هو الذي يقبض على ناصية الحكم فيها، وإن كانت تابعة لسلطان الآستانة بالاسم.

ومكة من المدن الواقعة في وسط الصحراء، ولا نشاهد مثلها في غير جزيرة العرب، ولا تفي أراضيها غير الخصبة باحتياج سكانها، فيجلب هؤلاء السكان الحبوب، التي يضطرون إليها، من مدينة جدة التي هي مرفأ لمكة واقع على ساحل البحر الأحمر.

وتصبح مكة في موسم الحج أغنى مراكز العالم الإسلامي التجارية وأكثرها تنوعاً، ويقوم في وسطها المسجد الحرام الذي ذاعت بفضل شهرته (أم القرى)، وتقوم الكعبة الشهيرة، التي يقول مؤرخو الشرق إن إبراهيم (عليه السلام) هو الذي بناها، في المسجد الحرام، وتتنافس الخلفاء والسلاطين والفاثون منذ زمن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في تزيين المسجد الحرام بدافع التقوى، فلم يبق شيء من زخارفه الأولى.

والمسجد الحرام مربع الشكل، ويجد المرء نفسه، بعد أن يدخله من أحد الأبواب، في باحة فسيحة تحيط بها أقواس قائمة على غابة من الأعمدة، وتعلو هذه الأعمدة قباب صغيرة كثيرة، وتقوم مآذن المسجد الحرام على مختلف أجزاء ذلك المربع، ويقع المعبد الصغير، الكعبة، في باحة الحرم المكي.

والكعبة بناء مكعب ذو أحجار سمر، ويبلغ ارتفاعها أربعين قدماً وطولها ثمانين عشر قدماً وعرضها أربع عشرة قدماً على حسب رواية بركهارد، وليس للكعبة سوى باب واحد يرتفع عن الأرض سبع أقدام، ولا يوصل إليه إلا بسلم متنقل ينصبونه في موسم الحج، ويتألف داخل الكعبة من حجرة واسعة مبلطة بالرخام ومنارة بمصابيح مصنوعة من الإبريز ومزخرفة بالكتابات.

والحجر الأسود وهو أشهر ما فيها مدمج في أحد جدران الكعبة الخارجية، ولا يزيد قطر الحجر الأسود، على سبعة قراريط، ولم نسمع بشيء كرمه الناس زمناً

طويلاً كالحجر الذي كان موضع احترام وتبجيل من قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بقرون كثيرة.

وتُكسى الكعبة في كل سنة كسوة سوداء تسترّها كلها عدا موضع الحجر الأسود وبضع أقدام من أسفلها، ويعصب أعلى الكعبة في أوائل مواسم الحج بنطاق موشى بآيات قرآنية مكتوبة بحروف من ذهب.

ويقوم في ساحة المسجد الحرام، أيضاً، بناء مربع سائرٍ لينبوع تقول القصة أن ملكاً فجره حين حجبت هاجر وجهها لكيلا ترى - وهي هائمة على وجهها في البادية - ولدها إسماعيل (عليه السلام) يموت عطشاً.

ويجزم مؤرخو العرب أنه كان يسكن مكة مائة ألف نفس في غابر الأزمان، ويرى بركهارد أنه لا يقطن بها سوى عشرين ألف نفس في الوقت الحاضر.

وتقع (المدينة المنورة) في الحجاز أيضاً، وهي أقدم عاصمة للدولة العربية، وتلي مكة في الشرف عند المسلمين من الناحية الدينية، فالى المدينة هاجر النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وفيها توفي بعد أن وطّد دعائم دينه.

وتحيط بالمدينة أرض مجدية كما تحيط بمكة، ولا تثبت هذه الأرض ما يحتاج إليه سكانها من الحبوب، فيجلب هؤلاء السكان ما يضطرون إليه منها من ميناء ينبع الواقع على ساحل البحر الأحمر.

وأصبحت المدينة ذات غنى وثراء بفضل تقوى الحجاج وبرهم، وتتألف بيوتها، المبنية من الحجارة المنحوتة، من طابقين على الأقل، وشوارعها مبلّطة، ويحيط بها سور مرتفع.

وليس في المدينة مبانٍ قديمة، عدا مسجدها المشهور الذي دفن فيه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بعد أن كان يعلم الناس فيه أحكام الإسلام، وصارت المدينة، بفضل قبر الرسول (صلى الله عليه وآله)، مكان حجّ وزيارة مهم مثل مكة تقريباً.

### منشأ العرب

عدّ العرب واليهود والفينيقيون والعبريون والسوريون والبابليون والآشوريون،



الذين استوطنوا جزيرة العرب وآسيا الصغرى حتى الفرات، من أصل واحد، ويطلق على هذا الأصل اسم الأرومة الساميّة.

وتقوم قرابة هذه الأمم على تجانس لغاتها واشتراك أبنائها في صفات جسمانية متمثلة كاسوداد شعورهم وكثاثة لحاهم وكمدة ألوانهم وما إلى ذلك.

وإذا جاز لنا أن نحكم على مبادئ الساميين السياسية والاجتماعية، من خلال مبادئنا الحاضرة، رأيناها مبادئ قبلية غير راقية، وذلك مع الاعتراف بأن الأمم السامية أقامت حضارات عظيمة وأن ثلاثة من الأديان الخمسة أو الستة التي تسود العالم وهي (اليهودية والنصرانية والإسلام) نشأت عن الفرعين الساميين: اليهود والعرب.

وكانت القرابة بين العرب واليهود وثيقة، ودليل ذلك ما بين لغتي هاتين الأمتين وتقاليدهما من التشابه.

ولا جرم أن الشبه قليل بين العربي أيام حضارته واليهودي الذي عُرف منذ قرون بالنفاق والجبن والبخل والطمع، وأن من الإهانة للعربي أن يقاس باليهودي.

وسكان البدو من العرب مقسمون، في كل زمن، إلى قبائل صغيرة تخضع كل واحدة منها لشيخ أو أمير، ويقتصر سلطان هذا الشيخ أو الأمير، تقريباً، على قيادة المحاربين في الغزوات وتقسيم الغنائم والصدارة في بعض الحفلات.

والغزو وتربية الحيوانات هما كلّ ما يعتني به سكان البدو، ولا نهاية لما يحصل بين القبائل العربية من حروب ولأتفه الأسباب، ما دامت آخذة بمبدأ الثأر والقصاص الإسرائيلي القائل: إن العين بالعين والسنّ بالسنّ والنفس بالنفس (11)، وما تبع كلّ حادث قتل يقع بينها، حادث قتل مثله انتقاماً، ولا ترضى القبيلتان العربيتان المتعاديتان بالدية بدلاً من القصاص إلا بعد أن ينهكهما الجهد ويعتريهما الوهن.

وتنشأ عيوب أهل البدو من العرب ومحاسنهم من طبيعة حياتهم.

إن الأعراب من سكان جزيرة العرب وسورية وأفريقيا يحبّون الحرية حباً جمّاً لا

11 – وفي القرآن الكريم: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور... وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص) المائدة: 44-45.

يقدر الأوروبي أن يتصوره، وهم يزدرون أبناء المدن ويعتّونهم من الأرقاء لذلك، ويتضمن الارتباط بالأرض عندهم معنى توديع الحرية والخضوع لسيد، ويرى الأعراب الذين لا يملكون سوى حريتهم أن هذه الحرية أغلى شيء، وقد حافظوا عليها بتوالي الأجيال، ولم يقدر جميع الفاتحين من الإغريق والرومان والفرس وغيرهم من الأمم التي دوّخت العالم أن يستعبدونهم، وكلّ قهر للأعراب لا محالة زائل، والقهر إذا ما وقع كان على أيدي أعراب آخرين، فلا يفلّ الأعراب إلا الأعراب ويرجع حبّ الأعراب للحرية إلى أقدم عصور تاريخهم.

وأصبح أعراب جزيرة العرب، بما كان عندهم من غرائز النهب والقتال، محاربين أشداء أيام خلفاء النبي محمد (صلّى الله عليه وآله)، فدوخوا العالم بسرعة، ولم تتغير غرائزهم بتغير ما لاقوا من الأحوال الجديدة، بل تجلّت على صور أخرى ما دام الثبات وعدم التغير من الغرائز، فأصبح حبهم للنهب حبّاً للفتح، وتحولت شجاعتهم إلى ما أخذته أوربا عنهم مؤخراً من طبائع الفروسية، ثم إن ما بينهم من التفاخر والمنافسة لم يلبث أن جاوز الحدود المعقولة فكان سبباً في خسرائهم بعد أن كان حافزاً لهم على العمل الصالح في البداوة.

وكان يتألف من الأعراب قسم كبير من جيوش خلفاء النبي محمد (صلّى الله عليه وآله)، وقام الأعراب الفاتحون بأجلّ الخدمات لأولئك الخلفاء، وإن كان العلماء وأرباب الفن الذين ازدهرت بهم حضارة أتباع النبي (صلّى الله عليه وآله) لم يظهروا من بين الأعراب غالباً.

### عرب الصين

أخذ خلفاء العرب وملوك الصين يتبادلون السفراء بعد أن أقام العرب دولتهم، وسترى في مكان آخر من هذا الكتاب أن صلات العرب والصين التجارية كانت منتظمة برّاً وبحراً.

ولم يلبث الإسلام في الصين، كما في كلّ بلد دخله العرب، أن صار له أتباع،

ويقدّر (مسيو دابري دوتيرسان) عدد مسلمي الصين بعشرين مليون نفس (12)، وذلك في كتاب نشره حديثاً عن الإسلام في الصين، ويرى هذا المؤلف أن دماء عربية تجري في عروق مسلمي الصين وإن لم يكونوا عرباً حصراً، وأنه يتألف منهم عرق مزيج من العرب والصينيين، ثم يقول:

(إن المسلمين في الصين منحدرين من الكتيبة المؤلفة من أربعة آلاف جندي الذين أمدّ بهم الخليفة أبو جعفر الإمبراطور سوتسونغ في سنة 755م حين شق أنلوشين العصا، والذين سمح هذا العاهل لهم بالإقامة بأهم مدن الصين مكافأة لهم على ما قاموا به من خدمات فتزوجوا صينيّات، وكان منهم أصل مسلمي الصين. إنهم يتصفون بروح الصدق والشرف على العموم، وإن من يتقلد منهم بعض مناصب الدولة يحترمه الناس ويحبّونه، وإن من يتعاطى التجارة منهم يتمتع بالسمعة الطيبة، وإنهم يؤتون الصدقات كما يأمر الدين، وإن الناظر إليهم يُخيّل إليه أنهم يؤلفون أسرة كبيرة واحدة يشدّ بعضها أزر بعض. وإنهم، مع طابعهم الخاص، استطاعوا بفضل نباهتهم وإخائهم الديني وتسامحهم أن يلائموا بيئتهم وأن ينموا ويكثروا، وذلك خلافاً لدعاة الأديان الأجنبية الأخرى الذين أرادوا أن يكون لهم شأن في الصين فلم يتقدموا خطوة حتى الآن).

ونشأ عما فطر عليه مسلمو الصين من التسامح والروح الحرّة واحترامهم عادات الصين وشرائعها ومعتقداتها أن يتمتعوا بما للصينيين من الحقوق وأن يكون منهم حكامٌ وقوَّادٌ ومقرَّبون من الإمبراطور.

### أديان جزيرة العرب القديمة

كانت عبادات القبائل العربية قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) كثيرة للغاية، وكانت عبادة الشمس وأهمّ النجوم، أكثرها انتشاراً وأخذت القبائل العربية عن الأمم التي كانت تتصل بها كثيراً من آلهتها، فكان زونها (13) جامعاً لشتى الأصنام

12 - هذه الإحصاءات قديمة جداً.

13 - الزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.

### كالأنبيا الإغريقية الرومانية.

وُجِدَ في ثنايا تلك العبادات المختلفة بذور توحيد مما تعهّد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بإنمائه فيما بعد، وقد بنى إبراهيم (عليه السلام) الكعبة في جزيرة العرب كما روى العرب، وجعل العرب منها موضع تكريم وحج منذ القدم، وكان فيها حين ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) 360 صنماً وصورة، وكانت صورة المسيح (عليه السلام) ومريم العذراء (عليها السلام) من هذه الصور كما جاء في تواريخ العرب.

وكان من دواعي الفخر عند العرب تزيين الكعبة وكانت سدانتها بيد قبيلة قريش التي نالت بذلك نوعاً من السيادة الدينية بين العرب.

وُجِدَ بين العرب، فضلاً عن النصارى واليهود الذين لم يكن عددهم قليلاً في جزيرة العرب، من يعبدون إلهاً واحداً، وسمّي هؤلاء بالحنفاء، وكان النبي محمد (صلى الله عليه وآله) يحبّ هذا الاسم، وليست عقيدة التوحيد، التي هي من أهم مبادئ القرآن، كل ما عند الحنفاء، بل قالوا أيضاً، كما قال القرآن فيما بعد: أن على الإنسان أن يسلم بقضاء الله وقدره تسليم إبراهيم (عليه السلام) حينما رأى ذبح ابنه، ولذا لم يكن من الخطأ إخبار النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في القرآن بوجود مسلمين قبل ظهوره.

ونشأ عن وحدة لغة العرب وحشر آلهتهم في الكعبة إمكان صهر عبادات هذه الآلهة وتحويلها إلى عبادة إله واحد، ومما يسرّ هذا الصهر تكلم عبّاد هذه الآلهة الكثيرة بلغة واحدة.

والحقّ أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حلّ، وهذا ما عرفه النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وهو الوجه الذي عرف فيه سرّ قوته، وهو الذي أنبأ الناس بأن الإله الواحد هو إله باني الكعبة، أي إله إبراهيم (عليه السلام) الذي كان العرب يجلبونه ويعظمونه.

### الفصل الثاني

## أثر الرسالة المحمدية في تغيير تاريخ العرب

فتوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ولد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في مكة المكرمة في اليوم السابع والعشرين من شهر أغسطس سنة 570م. وكان أبوه عبد الله، الذي توفي قبل ميلاده بشهرين، ابن قطب من أقطاب الكعبة الشهيرة، وكانت أمه آمنة بنت زعيم إحدى القبائل. ورأى المسلمون أن يقرنوا ميلاد زعيمهم الأعظم بالآيات، فرووا أن العالم اهتز لولادته، وأن نار المجوس المقدسة خبت، وأن شياطين الشر دُحرت من أعلى الشهب، وأنه تصدّع من أبراج إيوان كسرى (ملك الملوك) أربعة عشر برجاً إيزاناً بقرب انهيار دولة الفرس العظمى.

ورضعته (صلى الله عليه وآله) أمه في البداية، ثم دفعت به إلى قبيلة في البادية وفق عادة لا تزال قائمة حتى اليوم، فلما بلغ الثالثة من سنيه، ورأى أبواه من الرضاعة ما رأيا من الخوارق التي كانت تلازمه، خافا مغبة الأمر، ولم يريدوا بقاءه عندهما.

ولم تلبث أمه أن ماتت وهو (صلى الله عليه وآله) صبي، تاركة أمر رعايته لجده عبد المطلب، فغالى جده هذا في الاهتمام به.

ولكن ملائكة الرحمة، التي أرادت مضي النبي محمد (صلى الله عليه وآله) قدماً، صبّت عليه، وهو صغير، أنواع المصائب التي يصاب بها الإنسان عادة درجة درجة، فقد مات جده بعد وفاة أمه آمنة بسنتين، فكفله عمه التاجر الذي كان كثير السفر، ولم يجد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) له غير نفسه حامياً بعد قليل.

وتقول القصة أن محمداً (صلى الله عليه وآله) سافر مع عمه إلى سورية مرة، وتعرّف في بُصرى براهب نسطوري في دير نصراني.

ولما بلغ النبي محمد (صلى الله عليه وآله) العشرين من عمره اشترك في حرب بين قريش وقبيلة أخرى، فأظهر فيها، كما قيل بصيغة التأكيد، براعة حربية تجلّت فيه بعد زمن.

ونال النبي محمد (صلى الله عليه وآله) شهرة فائقة، وعُرف برفقه وصدقه، فلَقَّبته قريش بالأمين.

وإذا أُضيف إلى شهرته حسن صحته علمنا السرّ في عطف خديجة، التي كانت أرملة غني(14) عليه وتفويضها أمور تجارتها إليه. وتهيأ له (صلى الله عليه وآله) السفر إلى سورية بذلك، وتزوَّج بعد رجوعه من سورية، وكان عمره خمساً وعشرين سنة، خديجة الأيم الثرية البالغة من العمر أربعين سنة، وخديجة هي أولى زوجاته، ولم يتزوَّج امرأة أخرى في حياتها.

ولم يخبرنا التاريخ شيئاً عن سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في الخمس عشرة سنة التي انقضت بعد زواجه من خديجة.

### رسالة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)

لم يتكلَّم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) عن بعثته إلا بعد بلوغه الأربعين من عمره، فبعد أن كان قائماً يتحنَّث(15) على جبل حراء، الذي يبعد ثلاثة أميال من مكة، مثل ما كان يفعل في كلِّ سنة، جاء خديجة مُمتنعاً وأخبرها، كما روى مؤرِّخو المسلمين، بأنَّه بينما كان تائهاً في الجبل، إذ سمع جبريل يقرع أذنيه بقوله: (قُرْأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (16)، يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل. كما أخبرها بأنَّ هذا كلام إلهي وبأنَّه يشعر في نفسه بقوة نبوية.

ولم تتردّد المرأة المطيعة، خديجة، في تصديق بعثة زوجها النبوية، وانطلقت إلى ابن عمّها ورقة، وكان على جانب من العلم، وقصّت عليه ما سمعت، فقال: (قدّوس، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران (عليه السلام)، وإنَّه لنبي هذه الأمة).

14 - على بعض الأقوال.

15 - يتحنَّث: يتعبّد.

16 - العلق: 1-5.

ثم طاف (صلى الله عليه وآله) بالكعبة سبع مرّات، ثم انصرف إلى منزله، ثم تواتر الوحي عليه، كما ذكر أبو الفداء.

ولم ينذر النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في السنين الثلاث الأولى من بعثته، غير عشيرته الأقربين الذين كانوا على العموم، من ذوي النفوذ والوجاهة بسبب مقامهم وأعمارهم، فلما اطمأنّ إلى جوارهم جهر بدعوته وأخذ يحمل على الإشراك الذي كان مركزه في بيت آلهة جزيرة العرب المقدّس، الكعبة، كما ذكرنا ذلك.

ولم يكتب له التوفيق في بدء الأمر، وكان الناس يسخرون منه، ولكن سخرية سدنة الكعبة، قريش، لم تلبث أن انقلبت إلى غضب على النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وتهديد له ولمن والاه بالقتل.

ولم يفلّ ذلك من عزم النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وقد قال، كما ذكر أبو الفداء: (لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركتُ هذا الأمر).

حينها فكرت قريش في اضطهاد النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، ولم يمنعها من القضاء عليه غير ما تعودته الأسر العربية من إجارة أبنائها وما كانت تخشاه من تعريض قريش لثأر عشيرة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) الأقربين الكثيرين.

ولذلك أمكن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) أن يواصل دعوته وأن يزيد عدد أصحابه من غير أن يصيبه أذى كبير، ثم هاجر هؤلاء الأصحاب إلى الحبشة، لما لم يلاقوا من الإجارة كما لاقى النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

وروى مؤرّخو العرب أنّ ملك الحبشة سأل هؤلاء المهاجرين عن دينهم الجديد، فأجابه جعفر ابن عم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بما يأتي:

(كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي من الضّعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد

الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدّقناه وآمنا به واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا).

وكان النبي محمد (صلى الله عليه وآله) يقابل ضروب الأذى والتعذيب بالصبر وسعة الصدر، وكان في كلّ يوم يجتذب أصحاباً آخرين ببلاغته، والتجأ النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إلى عمّه أبي طالب ذي الجاه الكبير راغباً في السلامة. ومضت عشر سنين والنبي محمد (صلى الله عليه وآله) لم يفتّر ثانية عن الدعوة إلى دينه، فلما بلغ الخمسين من عمره أُصيب بمصيبتين كبيرتين: وفاة عمه أبي طالب الذي كان يحميه، ووفاة زوجته خديجة التي كان أقرباؤها من الأعيان النافذين.

وترك النبي مكة حين أضحى غير قادر على مقاومة أعدائه، وذهب إلى الطائف القريبة، ودافع أمام أهليها عن صدق بعثته، ولم يصغوا إليه، فاضطرّ إلى العودة. ولم يلبث الأمر أن تبدّل، ولم يلبث الزمن أن تبسّم للنبي محمد (صلى الله عليه وآله) بعد عبوس، فقد اغتتم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) موسم الحجّ ودعا إلى دينه أناساً من اليمن كانوا ينظرون إلى مكة بعين الغيرة، وكانوا ينتظرون، كما شاع بينهم، ظهور نبيّ، وقد استهواهم حديث النبي (صلى الله عليه وآله) واعتقدوا أنه هو النبي المنتظر، وقد حدّثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضاً، وقد جاءه من هؤلاء رجال كثر ليستمعوا إلى دينه البسيط الواضح، فلم يطلب منهم غير الإيمان بالله واحد وبالآخرة، حيث يُجازى الأشرار ويكافأ الأبرار، وغير إطاعة أمر الله والصلاة صباح مساء مع الطهارة بالوضوء، والتحلّي بجميع الفضائل والإقرار بأنّ محمداً رسول الله وإطاعته، وقد أخذ هذا الدين بمجامع قلوبهم، فأمنوا به وصدّقوه وبايعوه، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه.

ولما علمت قريش ما أصاب النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من النجاح غضبوا وسخطوا، وهم الذين لم يستطيعوا أن يتغاضوا عن دين جديد قد يضرّ بمصالحهم، فأتمروا بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله) ليقتلوه.



وحاصر المؤتمرين منزله، واستطاع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) مع ذلك أن يتسلل ليلاً من بين المؤتمرين وأن يتفككت من مطاردة قريش له (17)، وأن يصل إلى يثرب التي سميت بالمدينة بعدئذ. وكانت هذه الهجرة في سنة 622م، واتخذها العرب مبدءاً لتاريخهم.

### النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بعد الهجرة

دخل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) المدينة دخول الظافرين، وأظلل أصحابه رأسه بسعوف النخل، وصارت الجموع ترتمي على قدميه. وشرع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) منذ وصوله إلى المدينة، ينظم شؤون دينه، وأخذ القرآن، الذي كان في دور التكوين، يكتمل بفضل تواتر نزول الوحي على النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في جميع الأحوال الصعبة خلا مبادئه الأساسية التي كانت قد عرضت.

ووضعت شعائر الإسلام بالتعاقب، فسنّ الأذان لدعوة المؤمنين إلى الصلوات الخمس، وفرض صوم شهر رمضان، أي الامتناع عن الطعام من الفجر إلى غروب الشمس شهراً كاملاً، وفرضت الزكاة التي يعين المسلم بها الدين الذي أقيم. وصار النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بعد وصوله إلى المدينة، يقود الغزوات بنفسه، أو بواسطة أحد أصحابه، وغزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة هي أولى الغزوات المهمة، ففيها هزم جنود النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، الذين لم يزيدوا على 314 مقاتلاً، والذين لم يكن بينهم سوى ثلاثة فرسان، بينما وصل عدد أعدائهم إلى ألفي مقاتل، فكانت هزيمة أعداء النبي (صلى الله عليه وآله) التامة في بدر فاتحة شهرته الحربية.

وتوالت الوقائع بين النبي محمد وجيرانه، وكانت كل مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب، وكان يبدو رابط الجأش إذا ما هزم، ومعتدلاً إذا ما انتصر،

17 - وذلك بعد أن نام في فراشه (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وهو لم يقسُ على أعدائه.

وعظم شأن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في عدة سنين، وأصبح لا بدّ له من فتح مكة حتى يعمّ نفوذه، ورأى أن يفاوض قبل امتشاق الحسام وصولاً إلى هذا الغرض، ف جاء إلى هذا البلد المقدّس ومعه 1400 من أصحابه، ولم يكتب له دخوله، وقد دُهِش رسل قريش من تعظيم أصحابه له، فقال أحدهم: (إني جئتُ كسرى وقيصر في ملكهما فوالله ما رأيتُ ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه).

ورأى النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك الإخفاق أن يُروّح عن أصحابه، فخفّ بهم إلى مدينة خيبر المحصّنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام، والتي كانت تقطن فيها قبائل يهودية، والتي كانت مقر تجارة اليهود، ففتحها، وشعر النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بدنوّ أجله بعد خيبر، وذلك أنّ زينب اليهودية أهدت إليه شاة مسمومة، فأخذ منها قطعة، ولاكها، ثم لفظها بعد أن ذاق طعماً غريباً فيها، وقال (صلى الله عليه وآله): (تُخبرني هذه الشاة أنّها مسمومة)، ثم دعا بزینب الإسرائيلية فاعترفت اعترافاً دقيقاً ونجّت من العقاب حين قالت: (لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه وإن كان نبياً فسيُخبر)، ولم تزل أكلة خيبر تعاوده مع حماية الله له، فتوفي بتأثيرها بعد ثلاث سنين كما روى المؤرخون(18)).

ولمّا أحسّ النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بنموّ سلطانه عزم على فتح مكة وألّف جيشاً من عشرة آلاف محارب، جيشاً لم يسبق أن جمع مثله، وبلغ النبي محمد (صلى الله عليه وآله) أسوار مكة، وفتحها به من غير قتال، وذلك بقوة ما تمّ له من نفوذ.

وعامل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) الذين ظلّوا أعداء أشدّاء له عشرين سنة، بلطف وحلم، وأنقذهم من سورة أصحابه بمشقة، مكتفياً بمسح صور الكعبة وتطهيرها من الأصنام الـ(360) التي أمر بكبّها على وجوهها وظهورها

18 - راجع كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم) ج 1-2 للإمام المؤلف (دام ظله).

وبجعل الكعبة معبداً إسلامياً، وما انفكّ هذا المعبد يكون بيت الإسلام. ودخلت أكثر القبائل المجاورة في الدين الإسلامي على أثر فتح مكة، وحاولت بعض القبائل أن تقاوم، فهُزمت شر هزيمة. وهنالك بلغ النبي محمد (صلى الله عليه وآله) أوج مجده، فعزم على غزو سورية التي كان يعتقد أن أصحابها الروم يهدّدون حدوده. واستطاع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) أن يجمع جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألف مقاتل ووجد عشرة آلاف فارس بين هؤلاء المقاتلين، ولما وصل إلى تبوك الواقعة في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق علم أن الروم أقبلوا عن غرضهم، فلم يتابع سيره، ولم يخل زحفه هذا من فائدة، إذ نتج عنه أن خضع للنبيّ أمراء البلاد العربية المجاورة لمصر وسورية. ورغب النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في زيادة نفوذه حتّى قبل فتح مكة، فأرسل كتباً إلى جميع الجهات، وإلى أقوى ملوك الأرض أيضاً، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وساق إلى ملك غسان الذي كان من عمّال ملوك الروم جيشاً صغيراً لم يكتب له غير الفرار، وكانت هذه الغزوة، وهي الوحيدة التي وقعت خارج جزيرة العرب في أثناء حياته، ذات نفع، فلم يلبث العرب الذين وكل إليهم أمر حفظ الحدود أن انحازوا إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) حين آخر هرقل عنهم رواتبهم. ولم تثمر كتب النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إلى الملوك، وقد نقل التاريخ إلينا أن رسول الله النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وصل إلى كسرى حين كان السفراء يمضون معاهدة السلم بين كسرى وهرقل، وأنه عندما ألقى كتاب النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إلى كسرى ورأى فيه اسم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) قبل اسمه ووجد - وهو ملك الملوك - أن هذا يتضمّن أفضليّة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) عليه وفق رأي الشرقيين فمزق الكتاب غاضباً قبل أن يقرأه وداسه تحت قدميه، وقال: (يكاتبني بهذا وهو عبدي) وأن النبيّ لمّا بلغه ذلك قال: (مزق الله ملكه كما مزق كتابي). وقد قبلت دعوة النبيّ، فمزق خلفاؤه ملك كسرى كل ممزق من فورهم.

ولم يكتف كسرى بتمزيق كتاب النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، بل بعث إلى عامله باليمن: (أن ابعث إليّ هذا الرجل الذي يزعم في الحجاز أنه نبيّ) ولكن ابن كسرى قتل أباه هذا قبل أن يقوم عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصعب. ومضى على الهجرة عشر سنين، فخرج النبيّ (صلى الله عليه وآله) حاجاً إلى مكة، وكان هذا آخر حجّ قام به (19).

وشعر النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بدنوّ أجله، وأراد أن يودّع قومه فجمعهم وشكر الله على توفيقه لإكمال رسالته، ثم قال: (أيّها الناس من كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منّي، ومن كنتُ شتمتُ له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذت منه مالاّ فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يخش الشحاء من قبلي، فإنها ليست من شأني).

فادّعى عليه رجل ثلاثة دراهم، فأعطاه عوضها، ثم قال: (ألا إنّ فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة)، ثمّ صلى على الذين قاتلوا معه. وتوفّي النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بعد مرض دام خمسة عشر يوماً، وكانت وفاته في السنة الحادية عشرة من الهجرة حين كان عمره ثلاثاً وستين سنة.

وكانت جزيرة العرب، حتى عُمان، قد مالت قبل وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إلى الإسلام، وقد رضي بالإسلام مشركو العرب ومسيحهم ويهودهم، وأصبحوا بذلك أمة واحدة ألهمت المعنويات الجديدة، وغدت مستعدة لفتح العالم بعد زمن قليل بقيادة زعمائها الماهرين.

### حياة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وأخلاقه

تكلّمنا عن حياة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) العامة فيما تقدم، والآن نبحث

19 - ومن الأحداث الهامة في حياة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) نصبه عليّاً (عليه السلام) خليفة عنه في غدير خم، عند منصرفه عن حجة الوداع (م ش).

في أخلاقه وحياته الخاصة، مستعينين بأسانيد العرب وآثارهم.  
قال المؤرخ العربي أبو الفداء في وصف النبي محمد (صلى الله عليه وآله)  
مستنداً إلى ما رُوي عن أصحابه:

(وصفه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: كان النبي (صلى الله عليه وآله)  
ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس، كثّ اللحية، شثن الكفين والقدمين، ضخم  
الكراديس، مُشرباً وجهه حمرةً. وقيل: كان أدعج العينين، سبط الشعر، سهل الخدين،  
كأنّ عنقه إبريق فضّة. وقال أنس: لم يشنه الله بالشيب، كان في مقدّم لحيته عشرون  
شعرة بيضاء، وفي مفرّق رأسه شعرات بيض...

وكان (صلى الله عليه وآله) أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً، يكثر الذكر ويقلّ  
اللغو، دائم البشر، مطيل الصمت، لئّن الجانب، سهل الخلق، وكان عنده القريب  
والبعيد والقوي والضعيف في الحقّ سواء، وكان يحب المساكين، ولا يحقرّ فقيراً  
لفقره، ولا يهاب ملكاً لملكه، وكان يؤلف قلوب أهل الشرف، وكان يؤلف أصحابه،  
ولا ينفّرهم، ويصابر من جالسه ولا يحيد عنه حتى يكون الرجل هو المنصرف، وما  
صافحه أحد فيترك يده حتى يكون ذلك الرجل هو الذي يترك يده، وكذلك من قاومه  
لحاجة يقف رسول الله (صلى الله عليه وآله) معه حتى يكون الرجل هو  
المنصرف، وكان يتفقّد أصحابه ويسأل الناس عمّا في الناس، وكان يحلب العنز  
ويجلس على الأرض، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب، ويلبس المخصوف  
والمرقوع، عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الدنيا ولم  
يشبع من خبز الشعير. وكان يأتي على آل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) الشهر  
والشهران لا يوقد في بيت من بيوتهم نار، وكان قوتهم التمر والماء، وكان رسول  
الله (صلى الله عليه وآله) يعصب على بطنه الحجر من الجوع).

ويضاف إلى الوصف السابق ما رواه مؤرّخو العرب الآخرون من أنّ محمداً  
(صلى الله عليه وآله) كان شديد الضبط لنفسه، كثير التفكير، صموتاً حازماً سليم  
الطويّة عظيم العناية بنفسه.

وكان النبي محمد (صلى الله عليه وآله) صبوراً قادراً على احتمال المشاق ثابتاً

بعيد الهمّة لئن الطبع وديعاً، فذكر أحد خدمه أنّه ظلّ عنده ثماني عشرة سنة وأنه لم يعزّره قطّ في هذه المدة ولو مرة واحدة.

وكان النبي محمد مقاتلاً ماهراً، وكان لا يهرب أمام المخاطر ولا يلقي بيديه إلى التهلكة، وكان يعمل ما في طاقته لإنماء خلق الشجاعة والإقدام في بني قومه، وكان النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) عظيم الفطنة.

وشاءت الأقدار أن يكون النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) - وقد كان شاباً - حكماً بين أقطاب قريش الذين كادوا يقتتلون، حين اختلفوا في من يضع في أحد جوانب الكعبة ذلك الحجر الأسود الشهير الذي كان العرب يعتقدون أن ملكاً جاء به من السماء إلى إبراهيم (عليه السلام)، فقال النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) الشاب أمام الخصوم الذين أوشكوا أن يلجأوا إلى السلاح: (هلمّ إليّ ثوباً)، فأتي به فنشره وأخذ الحجر الأسود ووضع بيده فيه، ثم قال: (ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب)، فحملوه جميعاً إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء، ثم تناوله النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) من الثوب ووضع في موضعه، وانحسم الخلاف. وأولاد النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) هم من زوجته الأولى خديجة التي هي ثلاثة نساء العالم الأربع الكاملات، وثلاثة ذكور من أولاده السبعة ماتوا صغاراً، ولم يبق له سوى أربع بنات تُعدّ أشهرهنّ فاطمة (عليها السلام).

ومات النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) عن تسع أيام، وحرّم عليهنّ الزواج بعد وفاته احتراماً لحظره مهما كان عزاؤهن، وعزا المسلمون إليه خوارق كثيرة، وإليك قول (مسيو كازيميرسكي) الوجيز:

(انشقّ القمر بطلبه فرقتين على مشهد من الملاء، ووقفت الشمس بدعوته على الجبال والأرض حتى يؤدي عليّ (عليه السلام) صلاة العصر بعد أن أفاق النبي من غفوته ورأسه على ركبتني عليّ (عليه السلام) الذي أخبره بأنه لم يؤدّها حرصاً على راحتته، وكان يظهر، وهو المعتدل القامة، أطول من كل شخص يسير بجانبه، وكان النور يسطع من وجهه، ويشعّ من بين أصابعه حين يضع يده على وجهه، وكانت الحجارة والأشجار والنباتات تسلمّ عليه وتتحني أمامه، وكانت الحيوانات، كالظباء

والذئاب والضباب، تكلمه، وكانت الجديان تخاطبه وهي مشوية، وكان الجن يخافونه، ويؤمنون برسالته لما له من السلطان المطلق عليهم، وكان يردّ البصر للعمي ويشفي المرضى ويحيي الموتى، وأنزل من السماء مائدة لعلي (عليه السلام) وأسرته حين جاعوا، وأنبأ بأن ذرية فاطمة (عليها السلام) سينالها جور وعدوان، وبأن ملك بني أمية سيدوم ألف شهر، فحدث كما أخبر، الخ).

وفضلاً عن ذلك فإنه أثبت للمسلمين الصالحين أنه أُسري بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله) ليلاً على ظهر حيوان خيالي يُسمّى البراق، والبراق دابة مجنحة، لها وجه المرأة وجسم الفرس وذنب الطاووس، ويعتقد المسلمون أن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) اخترق السماوات السبع في معراجه حتى بلغ عرشه الإله. والنبي محمد (صلى الله عليه وآله) كان يعتقد أنه مؤيد من الله، فيتقوى، ولا يرتدّ أمام أي مانع.

وجمع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) قبل وفاته كلمة العرب، وخلق منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى. ومما لا ريب فيه أن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله) أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك كان فضل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) على العرب عظيماً، ويتجلّى هذا الفضل العظيم في جواب رُسل عمر بن الخطاب إلى كسرى حين سألهم عن أعمال النبي (صلى الله عليه وآله)، فقال هؤلاء الرسل:

(فأما ما ذكرت من سوء حالنا فما كان أحد أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنّا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فكنا نرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فكانت ظهر الأرض، ولم نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، كان ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض، وكان أحدنا يدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرنا لك، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، ففدّ الله

في قلوبنا التصديق له، واتباعه فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء وإليّ يصير كل شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحللكم داري دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق).

وإذا ما قيسست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب ينصفون محمداً (صلى الله عليه وآله) مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين من الاعتراف بفضله، قال العلامة بارتلمي سنت هيلر: (كان النبي محمد (صلى الله عليه وآله) أكثر عرب زمانه ذكاءً وأشدّهم تدبّيراً وأعظمهم رأفةً، ونال النبي محمد (صلى الله عليه وآله) عليه وآله) سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم، ونعد دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته).

فما سرّ هذا الدين الذي خضع لحكمه ملايين من الناس؟ وما الحقائق التي أرشد العالم إليها؟ ذلك ما نبحث فيه عما قليل.

### الفصل الثالث

### القرآن

### خلاصة القرآن

القرآن هو كتاب المسلمين المقدّس ودستورهم الديني والمدني والسياسي المنظم لسيرهم، فهو قد كتب تبعاً لمقتضيات الزمن بالحقيقة، فإذا ما اعترضت محمداً (صلى الله عليه وآله) معضلة أتاه جبريل بوحى جديد حلاً لها ودون ذلك في القرآن. والقرآن مؤلف من مائة وأربع عشرة سورة، وكلّ سورة مؤلفة من آيات، والنبي محمد (صلى الله عليه وآله) الذي هو يتحدّث فيها باسم الله على الدوام.

ويعدّ العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان.

وتقرب فكرة الكون الفلسفية في القرآن مما في الديانتين الساميتين العظيمتين



اللتين ظهرتا قبل الإسلام، ولم يفكر النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في ابتداع دين جديد قطّ، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم (عليه السلام) إلى عيسى (عليه السلام) قائلاً أن ما أوحى إليهم صحيح، والحق أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروع ثلاثة لأصل واحد، وأنها ذات قربي وشيجة.

والدين الذي دعا النبي (صلى الله عليه وآله) إليه الناس سهل جداً، وقد عرفه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بالكلمات القليلة الآتية حين أتاه جبريل بزيّ العرب وسأله عنه، وهي: (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن النبي محمدًا (صلى الله عليه وآله) رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت الذي يجب حجّه على من استطاع إليه سبيلاً)، وهذا التعريف الذي قبله جبريل تامّ كما هو واضح.

ويلخصّ المسلم الإسلام في هاتين الكلمتين اللتين لا ينكر إيجازهما، وهما: (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله).

## فلسفة القرآن

### انتشاره في العالم

إذا رجعنا إلى عقائد القرآن الرئيسية رأينا أن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولاسيما في التوحيد المطلق الذي هو أصلٌ أساسي، وذلك أن الإله الواحد، الذي دعا إليه الإسلام، مهيمٌ على كلّ شيء ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يُفرض تقديسهم، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم.

وتشتقّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام.

والإسلام وإدراكه سهلٌ، خالٍ - مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم - غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقلّ غموضاً من

أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد وبمساواة جميع الناس أمام الله وبيضة فروض يدخل الجنة من يقوم بها ويدخل النار من يعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقده ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما مائلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصّر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء كانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة.

ويجب على من يرغب في الحكم بفائدة كتاب ديني ألا ينظر إلى قواعده الفلسفية، بل إلى مدى تأثير عقائده، والإسلام إذا ما نُظر إليه من هذه الناحية وجد من أشدّ الأديان تأثيراً في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة، الخ، يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلاً عن ذلك، أن يصب في النفوس إيماناً ثابتاً لا تزعزعه الشبهات.

ولا ريب في أن نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً للغاية، فقد كانت بلاد العرب قبل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) مؤلفة من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلة دائماً، فلما ظهر النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ومضى على ظهوره قرن واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى أسبانيا، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المدن التي خفقت راية النبي (صلى الله عليه وآله) فوقها.

والإسلام من أكثر الديانات ملائمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح، والبدئية، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة، تراها مضطرة أن تتحول تحولاً تاماً لتستمرئها الجموع، وهي لاشك، دون الإسلام في شكلها المعدّل هذا.

وجرت حضارة العرب، التي أوجدها أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، على سنة جميع الحضارات التي ظهرت في الدنيا: نشوء فاعتلاء فهبوط فموت، ومع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها لم يمسّ الزمن دين النبي (صلى الله عليه وآله) الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئاً من قوتها.

ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر كثيرون، واعتنقته جزيرة العرب ومصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى وجزء كبير من الهند وروسيا والصين، ثم جميع أفريقيا إلى ما تحت خط الاستواء تقريباً (20).

وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستوراً لها وحدة اللغة التي يسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي.

وتجب على جميع أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، وهي لذلك تعتبر من أكثر لغات العالم انتشاراً على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام.

ورأى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة فعزوها إلى ما زعموه من تحلل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وبطشه، ويسهل علينا أن نثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس.

وسيرى القارئ، حين نبحث في فتوح المسلمين وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك المسلمون المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض النصارى الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل المسلمين الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل (21).

20 – تبلغ نفوس المسلمين على بعض الإحصاءات الأخيرة: ملياري مسلم 1996م.

21 – يظهر من أي القرآن أن مسامحة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) لليهود والنصارى كانت عظيمة

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرده عن آخرهم على ترك الإسلام. ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن المسلمون فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها (22) ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً بعد يوم مع أن الإنكليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تبعاً إلى الهند لتتصير مسلميها على غير جدوى. ولم يكن القرآن أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها.

## الفصل الرابع

### فتوح المسلمين

حال العالم في زمن النبي محمد (صلى الله عليه وآله) كان يتنازع سيادة العالم حين وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) دولتان

للغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، قال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): (إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرأ لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية).

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): (إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرّم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس المسلمون النصارى بسوء حين فتحوا القدس، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتلوا دلوها).

وقال الراهب ميشود في كتابه (رحلة دينية في الشرق): (ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة).

22 — هذه الإحصاءات قديمة جداً.

عظيمنتان: إحداهما دولة الروم التي كانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت صاحبة السلطان على جنوب أوروبا والشرق الأدنى وشمال أفريقيا الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي، والأخرى دولة الفرس التي كان سلطانها ممتدًا إلى مكان بعيد من آسيا، وكان شمال أوروبا وغربها فريسة للبرابرة الذين كانت أمورهم فوضى وكانوا يتقاتلون على أسلاب الرومان وغنائمهم.

وكانت دولة الروم التي أنهكتها محاربتها لدولة الفرس، والتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة، في دور الانحطاط، ولم تكن غير هيكلٍ نخرٍ يكفي أقل صدمة لتداعيه.

وكذلك كانت علائم الانقراض بادية على دولة الفرس التي أوهنتها تلك الحروب أيضاً.

وأثقل الحكم الروماني كاهل مصر وأفريقيا، وكانت القسطنطينية تستغل شعوبها من غير أن تحسن سياستهما، وكانت الاختلافات الدينية ومظالم الحكام تقوض دعائهما.

ولم تكن أوروبا أحسن حالاً، فكان الحكم في أسبانيا، التي ستصبح مقراً لدولة زاهرة تحت الحكم العربي، بيد القوط المسيحيين الذين لم يستطيعوا أن يتمدوا، والذين أكلتهم الانقسامات الدينية فاستغاثوا بقيصر الروم، فلم يذم حلفاؤهم أن صاروا أعداءً تجب محاربتهم، وفقدت روما الإيطالية نفوذها القديم وأصبح اسم الروماني محتقراً في كل مكان، وصار البرابرة يتناوبون السيطرة عليها.

ولم تكن الفوضى ظاهرة في مكان ظهورها في سورية، التي هي أول قطر استولى عليه العرب، وكانت أهم المدن السورية، التي لم تتلها أيدي التخريب في الحروب الرومية الفارسية الدائمة، والتي لم تنزل على شيء من النضارة، مقتصرة على المعاملات التجارية والمجادلات الدينية، ولم تبال بما كان يقع خارج أبوابها، وكانت تهجر أريافها، ولم يكثر أهلها لشيء من المبادئ القومية، وكانوا مستعدين لتلبية نداء أي فاتح يعد بإطعامهم، وكان الأرستقراطيون من سلالة فاتحي سورية، الذين أفسدهم توالدهم والأمم الآسيوية، قد اندحدروا إلى الحضيض فخسروا قيمتهم

ونفوذهم.

وكانت الأمم الإغريقية الرومانية والآسيوية، وقت ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، قد فقدت مثلها العليا منذ زمن طويل، فلم يبق لحب الوطن وعبادة الآلهة أثرٌ في نفوس أبنائها، وكانت الأثرة كل ما في قلوب هؤلاء الأبناء، والأثرة إذا كانت دليل قوم عجزوا عن مقاومة قوم آخرين مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل معتقداتهم.

وقد استطاع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) أن يبدع مثلاً علياً قويّةً أخرى للشعوب العربية، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) على الخصوص، ولم يتردد أتباع النبي (صلى الله عليه وآله) في التضحية بأنفسهم في سبيل هذه المثل العليا، طامعين في الجنة التي لا يعدلها شيء من متاع هذه الحياة الدنيا.

### طبيعة فتوح المسلمين

لم تقل براعة الخلفاء الأولين السياسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عجل، وذلك أنهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان يبغي عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة والذين كانوا مستعدين لأن يستقبلوا بترحاب وحبور أيّ فاتح يخفف وطأة الحياة عنهم، وكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه وعرفوا كيف يبتعدون عن أعمال السيف فيمن لم يسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها، مكتفين بأخذهم، في مقابل حمايتها، جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى ساداتها السابقين من الضرائب.

وكان المسلمون، قبل أن يسعوا إلى فتح بلد، يرسلون رسلاً حاملين إليه شروطاً للوفاق، وتكاد هذه الشروط تكون مماثلة لهذه: (أمرنا صاحبنا أن نقاتلكم إلى أن تكونوا في ديننا فتكونوا أخوتنا ويلزمكم ما يلزمنا فلا نتعرض إليكم، فإن أبيتم أعطيتكم الجزية في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم إن تعرض

إليكم في وجه من الوجوه ويكون لكم عهدٌ علينا، فإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا السيف فنقاتلكم حتى تقيئوا إلى أمر الله).

ويثبت لنا سلوك عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به المسلمون الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس ومعه عدد غير قليل من أصحابه، وطلب من البطريرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهاليين الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم، وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعهم(23).

ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقلّ رفقا من ذلك، فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة، فرضي المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً، وقد بالغ المسلمون في الوقوف عند حدّ هذه الشروط والتقيّد بها فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين الإسلام ولغته أيّما إقبال.

وننتائج مثل هذه لا تتال بالقوة كما ذكرت غير مرة، ولم يظفر بمثلها من ملك مصر من الفاتحين قبل المسلمين.

### خلاصة تاريخ الإسلام

نلخص فيما يأتي تاريخ وقائع الإسلام الحربية المهمة في القرون الثمانية التي دامت فيها حضارة المسلمين:

### القرن الأول من الهجرة(24):

23 – البيع: جمع البيعة، وهي المعبد للنصارى.

24 – كانت الفتوحات في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله) بقيادته الحكيمة وغالبها كانت تحت إمرة علي

كانت فتوحات خلفاء النبي محمد (صلى الله عليه وآله) الأولى في بلاد العراق الخاضعة لدولة الفرس وفي بلاد سورية الخاضعة لقيصر القسطنطينية هرقل، وكان بدء فتح هذين القطرين في زمن الخليفة الأول الذي لم يلبث أن توفي فواصله عمر الذي دخل القدس بنفسه فخر الروم، في سبع سنين، بلاد سورية التي ظلوا حاكمين لها سبعمائة سنة.

ودوخ جنود عمر بلاد العراق وفارس من فورهم، أي كفى لإسقاط عرش بني ساسان وهدمهم الدولة الفارسية العريقة في القدم حروب شهرين. ونالت كتائب عمر، في الغرب انتصارات سريعة، واستولت على بلاد مصر والنوبة، وكانت الدولة الإسلامية التي ولدت منذ عشرين سنة على جانب كبير من الاتساع حين وفاة عمر في سنة 644 م.

وداوم الخليفة الثالث عثمان، الذي بلغ الثمانين من عمره، على الفتوح وأتم قواده فتح بلاد فارس، ووصلت جيوشه إلى بلاد القفقاس، وأخذت ترتاد الهند. وكان الخليفة علي (عليه السلام)، وهو صهر النبي (صلى الله عليه وآله) هدفاً للدسائس التي كادت الدولة العربية تنهار بسببها، وقُتل علي (عليه السلام) بعد خلافة دامت خمس سنين.

وفتح عهد خلفاء بني أمية بمعاوية (660م)، ونقل هؤلاء مقرّ الخلافة إلى دمشق، وصاروا يسيرون على نمط ملوك آسيا.

وأرسل الخليفة الجديد كتائب إلى شمال أفريقيا الذي جعل منه حكومة منفصلة، ولم يعق زحفها غير المحيط الأطلسي، وجاب البحر المتوسط أسطول مؤلف من 1200 قطعة، فاستولى على جزره وأغار على صقلية.

وحوصرت القسطنطينية سبع سنين على غير جدوى، وعبر نهر جيحون ورفع قواد الخليفة رايته حتى سمرقند.

ومات معاوية (682م) بعد حكم دام عشرين سنة.



وثابر المسلمون على الفتح، وبلغت جيوشهم حدود الصين من الشرق والمحيط الأطلسي من الغرب، وجاوز المسلمون مضيق جبل طارق في سنة 712م، ودخلوا أسبانيا، ووفقوا لنزعها من مملكة القوط النصرانية، وأقاموا فيها مملكة خضعت لسلطان المسلمين نحو ثمانية قرون.

ولم ينقض القرن الأول من الهجرة حتى كانت راية النبي (صلى الله عليه وآله) تخفق من الهند إلى المحيط الأطلسي، ومن القفقاس إلى الخليج الفارسي، وغدت أسبانيا، التي هي إحدى الممالك النصرانية الكبرى في أوربا، خاضعة لشريعة النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

### القرن الثاني من الهجرة:

اتسع نطاق الفتوح الإسلامية قليلاً في القرن الثاني من الهجرة، وأصبح همّ المسلمين مصروفاً إلى تنظيم دولتهم العظمى على الخصوص، وتوغلت جيوشهم في بلاد الغول حتى اللوار حيث دحرها شارل مارتل، واستقروا بجنوب فرنسا إلى أن طردهم شارلمان منها نهائياً.

ونقل، في القرن الثاني من الهجرة، مقرّ الخلافة من دمشق إلى بغداد التي أنشأها المنصور في سنة 762م، بعد أن تمت الخلافة فيها لبني العباس عمّ النبي (صلى الله عليه وآله) الذين هدموا دولة الأمويين في سنة 752م، وقتلوهم خلا طريد منهم استطاع أن يفرّ ويقيم دولةً مستقلة في إسبانيا سنة 756م.

واتسعت رقعة الدولة الإسلامية منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة وبلغت من الحدود ما لم تقدر على مجاوزته باسطة حكمها من جبال البرنات وجبل طارق إلى الهند، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال الصحراء.

وصارت معظم آسيا خاضعة لسلطان الإسلام الممتد من جزيرة العرب إلى تركستان ومن وادي كشمير إلى جبال طورس، وعبدت بلاد فارس، وصار ملوك كابل وجميع أمراء وادي السند يعطون الجزية، وأضحى المسلمون في أوربا مالكيين لأسبانيا ولجزر البحر المتوسط، وأضحوا في أفريقيا مالكيين لشمالها ولمصر.

وانتهى عهد الفتوح، وبدأ عهد التنظيم، وحول الفاتحون نشاطهم إلى ميدان الحضارة، وكان عهد بني العباس الأولين عهد ازدهار لحضارة المسلمين في الشرق، وكان عهداً اقتبس المسلمون فيه ثقافة اليونان، فلم يألوا جهداً أن أبدعوا حضارةً ساطعةً ازدهرت فيها الآداب والعلوم والفنون.

ونهضت الفنون والعلوم والصناعة والتجارة بسرعة، وصار الشعراء والعلماء وأرباب الفنّ يشيدون بذكر بطل ألف ليلة وليلة في أقاصي العالم.

ولم تكن الروابط بين الأمم التي اجتمعت تحت راية الدولة الإسلامية العظمى متينةً ولم تلبث هذه الروابط أن انحلت، ولم تلبث هذه الأمم أن أخذت تستقل تبعاً مع دوام الحضارة على سيرها زمناً طويلاً، وسيكون القرن الثالث من الهجرة شاهداً على هذا الانقسام الذي أخذ يظهر منذ أواخر القرن الثاني.

### القرن الثالث من الهجرة:

كان قيام خلافة قرطبة في الغرب قبل ذلك نذير انقسام دولة المسلمين فظهرت في بلاد فارس والهند وشرق بغداد إمارات كثيرة، ولم تنتشب هذه العاصمة أن أحاط بها أمراء مستقلون.

ويشتري ابن طولون استقلاله السياسي بمصر، ويقوم فيها مملكة، ويلقي حبل أفريقيا على غاربها، ويملك أسبانيا خلفاء مستقلون استقلالاً تاماً.

### القرن الرابع من الهجرة:

استمرت الدولة الإسلامية على الانقسام في القرن الرابع من الهجرة، وقامت دولٌ مستقلة في كثير من ولاياتها، وخسرت بغداد ما للعواصم من المزايا، وصارت القاهرة قاعدة الإسلام الحقيقية، وأصبحت أسبانيا أنصر مقررًا للحضارة الإسلامية مع دوام عاصمة الخلفاء القديمة على إلقاء أشعتها الساطعة، ويقصد طالبوا العلم من جميع أقطار الأرض، ومنها أوروبا النصرانية، جامعات المسلمين الكبيرة في طليطلة وقرطبة وقرطبة.

### القرن الخامس من الهجرة:

شهد القرن الخامس من الهجرة أمرين مهمين، وهما الحروب الصليبية وظهور الأتراك السلاجقة في العالم العربي، وكان قد جيء بهؤلاء السلاجقة البرابرة من تركستان كأسرى حرب في بدء الأمر، ثم تألف منهم حرس الخلفاء ببغداد، فابتلعوا السلطة الحقيقية شيئاً فشيئاً غير تاركين للخلفاء من السلطة سوى المظاهر.

وجعل السلاجقة مقرهم أمام القسطنطينية بعد أن ملكوا جميع الولايات المجاورة لبغداد، واستولوا على سوريا، وأحلوا تعصبهم محل التسامح، ونهوا النصارى عن القيام بشعائر دينهم، وجاروا على حجيجهم، فاضطربت أوربا وثارَت، بعد أن كانت تخشى تقدم المسلمين منذ زمن طويل.

ونشأ عن مواعظ بطرس الراهب ودعوة البابا (أوربان الثاني) أن جرّد الأوربيون حملتهم الصليبية الأولى في سنة 1095م وانقضوا على فلسطين، واستولوا عليها، وأنشأ غودفروا البويوني مملكة القدس النصرانية الهزيلة.

ومما حدث في القرن الخامس من الهجرة أن طُرد المسلمون من صقلية وأن حالف نصارى أسبانيا بعض التوفيق، فاستولى الأذفونش القشتالي على طليطلة، فكان هذا بداية الفتح الذي لم يتم إلا بعد جهود أربعة قرون.

### القرن السادس من الهجرة:

أدى انتصار النصارى الأول في الشرق إلى زيادة الحماسة في أوربا، فجردت أوربا حملة صليبية ثانية على الإسلام في سنة 1147م، فكانت نتيجة هذه الحملة وبالأعلى الصليبيين كآية حملة جردتها أوربا بعدئذ على العالم الإسلامي، فقد استولى سلطان مصر على بلاد فلسطين وطرد منها النصارى وبقي سيد المدينة المقدسة على الرغم من الحملة الصليبية الثالثة التي جردتها أوربا في سنة 1189م بقيادة فردريك بار باروس وفليب أوغست وقلب الأسد ريكاردس.

### القرن السابع من الهجرة:

جرّد الأوروبيون على الإسلام عدة حملات صليبية كان نصيبها الحبوط الذريع، واكتسح الصليبيون في حملتهم الرابعة التي جردوها في سنة 1202م مدينة القسطنطينية المسيحية، بدلاً من مقاتلة المسلمين، وأقاموا فيها دولة لاتينية شرقية لم يُكتب لها البقاء أكثر مما كتب لدولة القدس، ولم تكن الحملات الصليبية الأربع الأخيرة أوفر حظاً مما تقدمها، وأسر الملك سان لويس في الحملة السابعة، وافتدى نفسه بفدية عظيمة، ومات هذا الملك في الحملة الثامنة بالطاعون حين اقترب من أسوار تونس طامعاً في تنصير أميرها.

وكانت هذه الحملة الثامنة آخر الحملات الصليبية وأدرك العالم النصراني بها أنه لا يزال عاجزاً عن قهر المسلمين، وعدل عن فتح فلسطين وظلّت الراية الإسلامية تخفق فوقها حتى الآن.

وبينما كان المسلمون يدفعون نصارى الغرب في أثناء الحروب الصليبية ويخرجون منها ظافرين ظهر في الشرق الأقصى عدو مخيف، فقد قذفت نجود التتر تيّار المغول الذي انقضّ على آسيا بقيادة جنكيز خان، واكتسح بلاد الصين وفارس والهند، ثم استولى المغول على بغداد في سنة 1258م، وقضوا على العباسيين الذين كان لهم السلطان منذ خمسمائة سنة.

وعلى ما بين الترك والمغول من شبه في الهمجية كان المغول أكثر استعداداً للثقافة، فالمغول وإن لم يكونوا أهلاً لإبداع حضارة جديدة، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة المسلمين الذين وإن زال ملكهم في الشرق ظلّت حضارتهم تهيمن عليه. وانحصر سلطان المسلمين في مصر وأسبانيا بعد أن انكمش أمام أولئك الفاتحين.

### القرن الثامن من الهجرة:

كان القرن الثامن من الهجرة حافلاً باقتتال الترك والمغول على ميراث المسلمين في الشرق، وقد دقت ساعة انحطاط هؤلاء المسلمين.

## القرن التاسع من الهجرة:

قضي على دولة المسلمين وحضارتهم في أسبانيا التي ملكوها نحو ثمانمائة سنة، وذلك أن فردناند استولى على عاصمة المسلمين الأخيرة غرناطة في سنة 1492م، وأنه أخذ يمعن في قتلهم وتشريدهم جماعات جماعات، وأن خلفاءه ساروا على سنّته، وأنه قتل من المسلمين وشرّد ثلاثة ملايين نفس، فخبث شعلة حضارة الإسلام التي كانت تنير أوروبا منذ ثمانية قرون.

وكانت خاتمة دولة العرب في القرن التاسع من الهجرة، ولم يبق للإسلام في الشرق من الشأن الكبير في غير دينهم ولغتهم وحضارتهم.

## الفصل الخامس

### دولة المسلمين

### الإسلام في سورية

اختلاف البيئات التي واجهها الإسلام

نرى أن نقدّر حضارة الإسلام بالبحث في آثارهم في كل بلد افتتحوه فإذا تيسر لنا ذلك أمكننا أن ندرس، في فصول هذا الكتاب، مختلف العناصر التي تتألف من مجموعها حضارة الإسلام.

كانت أم البلاد التي استولى الإسلام عليها في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأقاموا عليها دولتهم العظمى متباينة أشد التباين حين الفتح الإسلامي، فأنت إذ كنت ترى بينها أمماً من أنصاف البرابرة، كالتّي في بعض أجزاء أفريقيا، كنت ترى منها أمماً بلغت الذروة من الحضارة اليونانية والحضارة اللاتينية كالتّي في سورية.

إذن، كانت الأحوال التي صاحبت الإسلام مختلفة باختلاف الأماكن، وكان من الحق أن يجد الإنسان تفاوتاً في درجات حضارتهم تبعاً لتفاوت البيئات.

وكان للعمارة والآداب والعلوم والفلسفة والدين درجات تطور مختلفة باختلاف الأقطار التي خضعت لسلطان الإسلام، ولم يمنع ذلك من أن يكون للمسلمين تراث مشترك من الناحية الدينية والناحية اللغوية مادام الإسلام دينهم والعربية لغتهم، ولكن

وحدة اللغة والدين لا تعني وحدة الحضارة في مختلف البلدان التي خضعت لشريعة النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

### استقرار المسلمين بسورية

كان البلد الغني، سورية، قد أصبح رومانياً قبل الفتح الإسلامي، بنحو سبعة قرون، ويوجد ارتباكٌ وغموض في أخبار المعارك الأولى التي أدت إلى فتح المسلمين لسورية.

ومهما تكن دقائق الفتح الإسلامي لسورية فإن سورية خضعت لحكم الإسلام بعد حرب سجال بين المسلمين والروم.

وفتح دمشق من أهم فتوح المسلمين في سورية ولم تلبث دمشق الشهيرة أن أصبحت في العهد الأموي عاصمة الدولة الإسلامية بدلاً من المدينة.

وتم فتح دمشق في السنة الثالثة عشرة من الهجرة (634م)، وصرخ هرقل حين أتاه خبر سقوط دمشق قائلاً: (وداعاً يا سورية!).

حقاً لقد خسر الروم سورية، فقد استولى المسلمون بعد معركة اليرموك الشهيرة، التي دامت ثلاثة أيام وانتهت بانتصار المسلمين، على جميع مدن سورية، وفتحوا عنوةً تدمر وبعلبك وإنطاكية وطبرية ونابلس والقدس وطرابلس وغيرها، وأكره القيصر على مغادرة سورية إلى الأبد بعد أن ملكها أسلافه منذ سبعة قرون.

وكان لفتح القدس دويّ عظيم بين المدن التي استولى عليها المسلمون، وكان المسلمون يعلقون أهميةً كبيرةً على فتح هذه المدينة التي كانوا يقدّسونها تقديس النصارى لها، ففيها توفي المسيح (25)) الذي هو عند المسلمين من أعظم الأنبياء وفيها الصخرة الشهيرة التي عرج منها النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في السماء.

هجم العرب على القدس بشدة كالتّي أبديت للذبّ عنها، وحثّ البطريرك

25 — قال تعالى: (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) النساء: 157.

صفرونيوس الحماة النصارى على الدفاع عن قبر الربّ فلم يجد ذلك نفعاّ تجاه القدر الذي قضى بأن تحلّ راية الإسلام محلّ الصليب فوق قبر يسوع، ورأى صفرونيوس أن يذعن بعد حصار دام أربعة أشهر، واشترط أن يتسلم الخليفة عمر القدس بنفسه، فقبل ذلك، فركب عمر بعيراً، وغادر المدينة، وأغذّ عمر في السير ليل نهار ليصل إلى القدس في وقت قصير، فلما دخل القدس أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم، ولم يفرض سوى جزية زهيدة عليهم. وأبدى المسلمون تسامحاً مثل هذا تجاه المدن السورية الأخرى كلها، ولم يلبث جميع سكانها أن رضوا بسيادة المسلمين، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، وظلت سورية بلداً عربياً إسلامياً كما كانت في أوائل الفتح العربي مع تداول كثير من الفاتحين لسيادتها بعد ذلك. ولما توالى هزائم الروم في سورية استحوذ عليهم خوفٌ عظيم من المسلمين.

### حضارة سورية أيام سلطان المسلمين

واستردّت سورية أيام الحكم الإسلامي، ما أضاعته من الرخاء منذ زمن طويل، وبلغت درجةً رفيعةً من الرقيّ، وكان العدل بين الرعية دستور الإسلام السياسي، وترك الإسلام الناس أحراراً في أمور دينهم، وأظّل المسلمون أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة، وبلغت الصناعة والزراعة درجةً رفيعةً في سورية، وازدهرت بسرعة كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق.

وبعد أن فتحتها المسلمون، فقد جدّوا في دراسة كتب اليونان والرومان مثلما جدّوا في ميادين القتال، وأنشأوا المدارس في كل مكان، وصاروا أساتذة من فورهم بعد أن كانوا تلاميذ، ونهضوا بالعلوم والشعر والفنون الجميلة أيّما نهوض.

ودام رخاء سورية حتى عهد الانقسام الذي زلزل دولة الخلافة، وأخذ ينقص، ولم يتمّ زواله إلا حين غدت سورية تابعة لدولة الترك، فصرت لا ترى فيها شيئاً مما كان في أيام الحكم الإسلامي من النفائس والفنون والصناعة.

وكان شأن المسلمين بالنسبة إلى المهندسين الأجانب الذين استخدموهم في عهد الفتح كشأن الرجل الغني الذي يقيم لنفسه بيتاً، فكما أن المهندس الذي يرسم بيت ذلك الغني يراعي فيه — لا ريب — ذوقه، نرى مهندسي الروم قد راعوا ذوق المسلمين فيما أقاموا لهم من المباني الأولى، فتجلّت عبقرية المسلمين فيها.

ولم يلبث المسلمون، بعد أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية، أن أصبح لعمارتهم من الأشكال والنقوش الخاصة بهم ما صار يتعذر معه خلطها بغيرها، وإن أمكن أن يُرى شيء من الأثر البيزنطي أو الفارسي أو الهندي في بعض زخارفها مع محافظة البناء في مجموعته على طابعه الإسلامي.

إنه يجب على من يرغب في اجتلاء الشرق وألوانه اللامعة أن يزور دمشق، وأهم ما يستوقف النظر في هذه المدينة القديمة ويبدو متنوعاً هو طرقها وأسواقها التجارية الطريفة واستجلاء أمثلة مختلف أمم الشرق في بضع ساعات.

ففيها يرى الفرس ذوو القلائس الفروية والخناجر الزنارية، ويرى السوريون ذوو الحل المخططة والكوفيات والعقل البورية، وتُرى النساء العربيات ذوات المآزر البيض، ويرى الدمشقيون ذوو الطرابيش الحمر أو العمام البيض والألبسة الحريرية المخططة بخطوط بيض وسود والمشدودة بزنابير، ويرى حجاج البيت الحرام ذوو الثياب الرثة، ويرى قوَّاسو القناصل ذوو السياط والملابس الموشاة الزرق والخطوات الموزونة، ويرى الموظفون العثمانيون ذوو الأردية الرسمية القائمة ويرى فرسان الدروز ذوو العجب المنطقون بالسلاح والراكبون عتاق الخيل التي تعلوها سروج جلدية قرمزية مزينة بقطع لامعة من الذهب والفضة، وتُرى قطر الجمال بحرسها تجار آتون من كرمان والأناضول وشواطئ الفرات، ويرى الأكراد والأعراب والأرمن والموارنة واليهود وروم الأخبيل، ويُرى في هذه الأخطاف اختلاف في الألوان كالذي يرى في قوس قزح، ويُرى فيها ذوو البياض الناصع وذوو السواد الحالك وذوو الألوان التي بين اللونين.

إن المسلمين احترموا منذ عهد الفتح الأول، آثار الأمم التي ملكوها ولم يفكروا في غير الانتفاع بحضارتها وترقيتها، ذلك خلافاً لكثير من الأمم الفاتحة التي جاءت



بعدهم، وإن المسلمين الذين كانوا أميين في بدء الأمر، لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم، وأنهم تعلموا بسرعة ما كانوا يجهلون من فنون الحرب واستعمال آلات الحصار الرومية فسبقوا أعداءهم في ذلك، وأنهم بعد أن كانوا مبتدئين في العلوم والفنون ماثلوا الأمم الأخرى فيها بفضل ما أنشأوا من المدارس ثم تقدموها، وأنهم، بعد أن كانوا غير عالمين بفنون العمارة، وبعد أن استخدموا مهندسين من الروم والفرس في تشييد مبانيهم، استطاعوا بالتدريج أن يتخلصوا كل الخلاص من كل مؤثر أجنبي بما أحدثوا من تغيير وتبديل في فنون العمارة وفق ذوقهم الفني كما سنرى ذلك عما قليل.

### المسلمون في بغداد

#### حضارة المسلمين في الشرق في عهد الخلافة ببغداد

عهد الخلافة في بغداد وآسيا وعهدها في قرطبة بأسبانيا أنضر أدوار الحكم الإسلامي، ولما استقلت، تلك الدولتان بسرعة، وفصلت بينهما مسافات عظيمة، كان لهما أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة، تقدمتا تقدماً متوازياً عدة قرون، وكانت المدينتان الكبيرتان، بغداد وقرطبة، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام من مراكز الحضارة التي أضاعت العالم بنورها الوهاج أيام كانت أوربا غارقة في دياجير الهمجية.

ولم يلبث عهد ازدهار حضارة المسلمين أن بدأ بعد أن فرغوا من فتوحهم، وما بذلوا من الجهود في الوقائع الحربية في البداية، وجّهوا مثله إلى الآداب والعلوم والصناعة، فتقدموا في الفنون السلمية مثل تقدمهم في الفنون الحربية.

وكانت دمشق قد أصبحت عاصمة دولة الأمويين بعد المدينة، فلما قبض العباسيون على زمام الخلافة في سنة (132هـ - 740م) عزموا على تبديل العاصمة فأقاموا بالقرب من بابل وعلى شاطئ دجلة، مدينة بغداد التي لم تلبث أن صارت أشهر مدن الشرق.

ولم يبق من المباني التي أشادها الخلفاء في بغداد مثل ما بقي في سورية، ولكن

ما انتهى إلينا من آثار المسلمين في العلم والأدب في ذلك العهد وما ورد في كتب مؤرخيهم يكفي ليمثل حضارتهم في القرن التاسع من الميلاد، وما نذكره الآن، وما سندرسه في الفصول الآتية من تاريخ العلوم والفنون، يلقي ضوءاً على ناحية مهمة من نواحي الحضارة الإسلامية.

بلغت بغداد ذروة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون العباسي الشهير (786 م - 809م) وابنه المأمون (813م - 833م) وصارت من أهم مدن الشرق، وذاع صيت هارون، وأطبق الآفاق، فأرسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً إلى بلاطه، وأرسل عاهل الغرب الحقيقي وصاحب الحول والشوكة الإمبراطور شارلمان، الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلسي ونهر الألب، وهو الذي لم يملك غير أناس من الهمج وفداً ليلبغ هارون أطيب تحياته ويلتمس منه الحماية لحجيج القدس فأجابه هارون إلى سؤاله، وردّ إليه وفده مع هدايا عظيمة، ومن بينها فيل مجهّز بأفخر جهاز، والفيل كانت تجهله أوربا تماماً، ولآلى وجواهر وحلي وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعة دقّاقة تدل على الوقت، وقد رأى إمبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته البربرية الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها، والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان.

وفي بغداد تواصلت ولايات الدولة بوسائل نقل منظمة وأنشئت مرابط لتتمكن (البُرْد) (26) بها من قطع المسافات الكبيرة على عجل، وعني بحمام الزاجل لربط ما بين المدن بالرسائل كما هو واقع بين بعض المدن في الوقت الحاضر، وكانت إدارة البريد ببغداد من أهم وظائف الدولة كما في أوربا الحديثة.

وكان الولاة على رأس الولايات، وكانوا يمثلون لأوامر الخليفة، وكان يقوم مقام الخليفة في الولايات النائية، أمراء وراثيون استقلوا مع الزمن استقلالاً تاماً. وكانت مالية الدولة دقيقة الضبط، وكان دخل الدولة قائماً على الجزية والخراج

والمكوس وإحياء الأرض الموات واستخراج المعادن، وروى مؤرخو المسلمين أن دخل الخلافة السنوي بلغ مائتي مليون فرنك، أي مبلغاً عظيماً في ذلك الزمن.

وكان يقوم بأعمال الجباية لجنة تدعى الديوان، قال ابن خلدون:

(إن ديوان الأعمال والجبایات من الوظائف الضرورية للملك وهي: القيام على أعمال الجبایات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في أوقاتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قَومَة تلك الأعمال وقهارة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلاّ المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمّى ذلك الكتاب بالديوان، وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها).

وكانت إدارة الدولة موزعة بين أربعة دواوين ممثلة لدواوين الزمن الحاضر، وهو ديوان الغنائم ونفقات الجند وديوان الضرائب وديوان الجباية وديوان رقابة الدخل والخرج.

وكانت جميع أوامر الخلفاء تكتب في سجّل مصون ليرجع إليها فيه من يأتون بعدهم، وكان الوزير مرجع شؤون الدولة الأعلى، وكان أكثر الخلفاء يتركون له مقاليد الحكم تماماً، ويشابه منصبه في عصر الخلفاء منصب رئيس الوزراء في أيامنا هذه.

ولم تكن الشرطة في عهد الخلفاء أقلّ انتظاماً من البريد والمالية، وكانت للتجار نقابة مسؤولة لرقابة أمور البيع والشراء ومنع الغش والتدليس.

وكان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير، كتعبيد الطرق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة، ولا سيما بغداد والبصرة والموصل، الخ.

واتسع نطاق الزراعة والصناعة، وأنشئت مصانع للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق، وصار المسلمون يستغلون الممالح ومناجم الكبريت والرخام والحديد والرصاص، الخ، بطرق فنيّة.

ووسّعت دائرة التعليم العام، واستدعي الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجةً رفيعةً من التقدم، وانتهى إلى نتائج لم ينته إليها الأوروبيون إلا في العصر الحاضر، كقياس دائرة نصف النهار، ونقلت إلى اللغة العربية كتب علماء اليونان واللاتين، ولاسيما كتب الفلسفة والرياضيات، وصارت تدرّس في جميع المدارس، وبحث المسلمون في آثار القدماء، فسبقوا الأوروبيين إلى ذلك ببضعة قرون.

وأقدم المسلمون على تلك البحوث، التي لم يكن لهم عهد بها، بشوق ونشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم كما سترى ذلك في الفصول التي ندرس فيها تفاصيل حضارتهم.

وكانوا بذلك على نقیض الروم الذين سلموا إلى العرب تراث تلك الحضارات من غير أن ينتفعوا به والذين سقطوا في أسفل دركات الانحطاط.

وكان حب المسلمين للعلم عظيماً، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلاّ سلكوها، ومن ذلك إعلان أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنحل، من يونان وفرنسا وأقباط وكلدان يتقاطرون إلى بغداد ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا.

وكانت قوة الخلفاء الحربية في بغداد تتناسب أهمية دولتهم، ويمكننا اجتلاء ما كانت عليه من الهيبة في الخارج بما أكره عليه قيصر بيزنطة الوارث لعظمة اليونان والرومان من دفع الجزية حين تمنع عن إعطائها عبثاً، فلما رفض خليفة الإمبراطور أيرين، القيصر نيقفور، إعطاء الجزية في كتاب أرسله إلى الخليفة هارون العباسي أجابه هارون بالكتاب الموجز العنيف الدالّ على درجة الاحتقار الذي أضحي عرضةً لأبناء اليونان والرومان الضعفاء، وإليك:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافر، والجواب ما تراه، لا ما تسمعه).

رأى (كلب الروم) الجواب، فقد خرب هارون العباسي بلاده تماماً، وأرغم قيصر القسطنطينية النصراني على دفع الجزية إلى أمير المؤمنين.

ومن الإنصاف أن يُعَدَّ سلطان العرب السياسي في عصر هارون وابنه المأمون بما انتهى إليه سلطان العرب في الشرق، فقد كانت بلاد الصين حدًّا لدولة العرب في آسيا، ودحر العرب قبائل أفريقيا المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة، ودحروا الروم إلى البسفور ولم يبقوا في الغرب إلا عند المحيط الأطلسي، والحق أن هؤلاء القوم الشجعان الذين لبوا دعوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وغدوا أمة واحدة، أقاموا دولة بلغت ما بلغته دولة الرومان من الاتساع في أقل من قرنين، وأن هذه الدولة بدت أكثر دول الأرض هيبة وتمدناً.

بيد أن مصير الدول الحربية العظمى المطلقة تابع لاقتدار ولادة أمورها، فإذا كان هؤلاء الولاة من العباقرة، أينعت تلك الدول وتقدمت، وإذا لم يكونوا أبناء بجدها هبطت بسرعة أعظم من التي قامت بها.

واستولى المغول على بغداد سنة (656هـ - 1258م) وخربوها تماماً، وخنقوا آخر الخلفاء العباسيين، (المستعصم بالله) بأمر رئيس الغالبين (هولاكو) ونهبوا ما في بغداد من الأموال، وأحرقوا كتبها التي جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم وألقوها في نهر دجلة، فتألف منها جسرٌ كان يمكن الناس أن يمرّوا عليه رجالاً وركباناً، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها، كما روى قطب الدين الحنفي.

ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخربوا كل شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم، حتى أن (هولاكو) الذي خرب بغداد وأمر بجرّ جثة آخر العباسيين تحت أسوارها، بهرته عجائب حضارة الإسلام الجديدة في نظره، فلم يلبث أن صار من حماتها، وفي المدرسة الإسلامية تمدّن المغول واعتنقوا دين الإسلام وحضارته، وشملوا متقني المسلمين وعلماءهم برعايتهم، وأقاموا في بلاد الهند دولة إسلامية قوية من فورهم كما يمكن أن يقال، وذلك لأنهم أحلوا حضارة الإسلام محل الحضارة القديمة، ولأن سلطان حضارة الإسلام لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم.

أجل، قامت بغداد من تحت الأنقاض، ولكن الترك استولوا عليها بعد ثلاثة قرون فأصبحت بالانحطاط تام، فغابت عنها المكتبات ورجال الفن والعلماء إلى الأبد.

### المسلمون في بلاد فارس

رأى المسلمون أنفسهم، حين هدموا دولة بني ساسان الفارسية، تجاه حضارة قديمة قديمة، فاقتبسوا الشيء الكثير من فنونها على الخصوص.

وتمّ النصر للمسلمين على بلاد فارس في العهد الأول من الإسلام، كما اتفق لهم في سورية، واستولوا على أصبهان (645م)، ودام السلطان للخلفاء في بلاد فارس مدة ثلاثة قرون، وكان تاريخ بلاد فارس مرتبطاً بتاريخ بغداد بعض الارتباط، ثم تداولت حكم بلاد فارس دول مستقلة مؤقتة كان يدال منها، ونعدّ من تلك الدول دولة الترك السلاجقة الذين قضى المغول على سلطانهم في القرن الثالث عشر، ثم دولة التركمان الذين طردوا من بلاد فارس في سنة 1403م.

ونشأ عن تتابع الغزو هدم المباني القديمة التي شادها المسلمون وبنو ساسان في بلاد الفرس وزوال ما كان منها في مدينة أصبهان، على الخصوص، زوالاً تاماً، وما نراه الآن في أصبهان هو من صنع الشاه الفارسي الشهير عباس الذي اتخذها قاعدة ملكه في سنة (998هـ - 1589م) والذي استرد من الترك معظم بلاد فارس، ويظهر أن ذلك القطر استردّ رخاءه القديم لمدة قرن، فقد قاتل الفرس منصورين دولة المغول في الهند سنة (1539م) وانتزعوا منها ولايات كثيرة واقعة غرب نهر السند، ثم سادت الفوضى والانحطاط بلاد فارس.

وثبت تأثير المسلمين في الفرس من اعتناق الفرس لدين الإسلام ونظمهم، ومن شيوع اللغة العربية بينهم شيوع اللغة اللاتينية في أوربا في القرون الوسطى، وذلك من غير أن تكون لغة البلاد الدارجة، كما ثبت من استمرار الفرس إلى الوقت الحاضر على تلقي علم التوحيد والتاريخ والعلوم الأخرى من الكتب العربية.

إن قصور أكاسرة الفرس قبل الفتح الإسلامي كانت على جانب عظيم من الزخرف والزينة، وإن الفرس كانوا يعرفون إقامة القباب، وإنهم كانوا يعرفون كيف

يكسون المباني بالميناء، وإن المسلمين رضوا في عهد الفتح بفنّ العمارة الفارسي مع قليل من التبديل، وإن أهم ما اقتبسه المسلمون من متفنيّ الفرس في ذلك العهد الأول هو جزئيات الزخرفة واستعمال الميناء على الخصوص، لا طراز البناء الذي استعاروه في البداية، من البيزنطيين في سورية ومصر على الأقل.

وما بين بقايا مباني عصر الخلفاء في بلاد فارس والمباني التي أقامها الشاه عباس في أصبهان مؤخراً من التقارب يثبت لنا سير المهندسين على نمط قديم واحد، وسنرى في الفصل الذي ندرس فيه تاريخ فنّ العمارة العربية، أنه طراً على ذلك النمط القديم بعض التغيير في الجزئيات المهمة مع الزمن ولا سيما في شكل القباب، فبعد أن كانت القباب منخفضة، ثم ذات نصف كرة، صارت مخصّرة بصليّة الشكل. ومهما يكون من أمر فإن لفنّ العمارة الفارسي طابعاً خاصاً، ونعدّ المآذن المخروطية الشكل والأبواب العظيمة المفرطة القناطر والجدران المزينة بالميناء الملون من أهم ما اختصّ به فنّ العمارة الفارسي ذو التأثير في مباني الهند كما نقطع في ذلك.

وانتحل المغول، بعد أن قهروا المسلمين، دين الإسلام وحضارته، واستخدموا في بلاد فارس والهند التي استولوا عليها مهندسين من الهندوس والفرس، فمزج هؤلاء المهندسون مختلف الفنون في المباني التي أقاموها كما ستراه بعد قليل، وتدلّ بقايا الآثار في مدينة سمرقند العظيمة، التي اتخذها (تيمورلنك) عاصمة لدولته سنة (1404م) فأصبحت نصف متداعية اليوم، على المؤثرات الفارسية في فنّ العمارة، وأعظم من ذلك ما كان للمسلمين من التأثير في الهند في بادئ الأمر على الأقل.

ويظهر أنه صار للمغول فنّ عمارة خاص مع أنهم لم يبدعوا أيّ عنصر في هذا الفنّ الخاص، وقد قام هذا الفنّ على مزج فنون مختلف الأمم التي خضعت لحكمهم فيما شادوا من المباني كما تدلّ عليه الصور التي نشرناها (27).

والخلاصة هي أن تأثير المسلمين في بلاد فارس كان كبيراً في أمور الدين

27 - قد نشر الدكتور غوستاف لوبون في كتابه بعض الصور فراجع.

والعلوم واللغة، وأنه كان ضعيفاً بعض الضعف في العادات وفنّ العمارة، وأن الفرس، خلافاً للمصريين، حافظوا على أقسام حضارتهم القديمة الأساسية مع صلتها بحضارة الغالبين، وذلك خلافاً للمصريين.

### المسلمون في بلاد الهند

لم يتفق للمسلمين في بلاد الهند شأن سياسي أعظم مما كان لهم في بلاد فارس، وللمسلمين مع ذلك تأثير ديني قوي ونفوذ مدني كبير في بلاد الهند منذ القديم، ففي الهند يخضع نحو خمسين مليون نفس لشريعة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في الوقت الحاضر (28).

وبدأ ظهور الإسلام في الهند منذ السنة الأولى من الهجرة (637م) فقد خرجت أساطيل إسلامية من عمان والبحرين وتقدّمت إلى مصابّ السند، ثم أدّى ملك (كابل) الجزية إلى المسلمين في سنة (664م) وفتح جيش الإسلام في سنة (711م) مملكة السند التي كانت تمتد إلى كشمير من الشرق ونهر السند والبحر من الغرب. ولم يكن لاستقرار المسلمين هنالك أهمية كبيرة، فقد انتهى في سنة (750م)، فال الحكم فيها إلى ملوك من الهندوس، فإلى الترك والمغول الذين اعتنقوا الإسلام.

وملوك غزنة أهمّ أولئك وأقدمهم، والغزنويون أخذوا يفتحون بلاد الهند حوالي سنة 1000م، وانتهى قتالهم في هذه السبيل بعد إحدى عشرة معركة قاموا بها في خمس وعشرين سنة، واستولوا نهائياً على ضفة السند الشرقية وعلى كشمير والبنجاب ولاهور واجمير، وأعلن الغزنويون عن أنفسهم في كل مكان أنهم دعاة دين الإسلام وحضارته، ومنحهم خلفاء بغداد لقب أيامن المؤمنين، وهكذا خضعت



الهند للفاتحين للمرة الأولى منذ زمن الإسكندر.

وكان سلطان الإسلام السياسي والدينيّ قوياً في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائماً في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قدماً نحو الاتساع.

ووجد المسلمون، حين أوغلوا في الهند، حضارة قديمة وعرفوا كيف يستفيدوا منها، ومما يستوقف النظر ما استطاعوه في زمن قصير من نشرهم لمعتقداتهم في قسم كبير من هذا القطر الواسع.

وأعجب غزاة المسلمين بمباني الهندوس المغلوبين، واسمع ما قاله محمود الغزنويّ في كتاب أرسله إلى أحد قوّاده عن مدينة مترا، التي كانت مشهورة أيضاً في القرن الخامس عشر قبل الميلاد:

(تحتوي مدينة مترا العجيبة على أكثر من ألف من المباني المتينة متانة أهل الإيمان والمصنوع أكثرها من الرخام، ولا يشتمل هذا العدد على معابد الكافرين، وإذا عدّ المال الذي أنفق على إنشاء هذه المباني بلغ ألوف الألوف من الدنانير فضلاً عن أنه لن يقام مثل هذه المدينة في أقل من قرنين، ووجد جنودي في معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذوات عيون من ياقوت أحمر تساوي قيمته خمسين ألف دينار، ووجدوا فيها صنماً آخر من الذهب مزخرفاً بما زنته أربعمئة متقال من الياقوت الأزرق، وذا نصمة بلغ وزنها عند الصهر ثمانية وتسعين مثقالاً من الذهب الخالص، ووجدوا فيها، فضلاً عن ذلك، نحو مائة صنم من الفضة يعدل وزنها حمل مائة بعير).

وقام ملوك جدد مقام أصحاب غزنة، ثم جاء المغول فحلّوا محلّهم وهنا نرى تنبيهه القارئ إلى أن الذين تمّ لهم السلطان على الهند لم يكونوا عرباً بدمائهم، وإنما كانوا من دعاة دين الإسلام وحضارتهم.

ويصل الباحث، حين يدرس تأثير المسلمين في الأمم التي اختلطوا بها، إلى إحدى النتيجتين الآتيتين، وهما: إما أن تكون حضارة المسلمين قد حلّت محلّ حضارة الأمة

المقهورة كما حدث في مصر، وإما أن تكون قد امتزجت بحضارة الأمة المغلوبة كما حدث في بلاد فارس والهند.

وفي بلاد الهند بلغ امتزاج حضارة المسلمين بحضارة الهند مبلغاً بدت علائمه حتى على المذاهب الدينية، ثم حدث أن أتى بعدئذ عنصر الحضارة الفارسية، فاشترك هذا العنصر أيضاً في ذلك الامتزاج.

ولقد أبدع المسلمون من فورهم تقريباً، حضارة جديدة أفضل من الحضارات التي كانت قبلها، وذلك بعد أن استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان وحضارة الفرس.

ودام سلطان أصحاب غزنة حتى سنة 1186م وحلّ الغوريون، الذين هم من التركمان، محلهم، ونذكر من ملوكهم المشهورين قطب الدين الذي توفي سنة 1210م، والذي أقام في بلاد الهند مباني ذات قيمة كما سيأتي بيان ذلك.

وأصبحت مدينة دهلي، في سنة 1250م، ملجأ لرجال العلم والفن من الغرباء، وصارت تحذب عليهم حذب بغداد فيما مضى، ثم أتى المغول، وصاروا يغزون الدولة الجديدة، ونازلهم علاء الدين تحت أسوار دهلي في سنة 1297م فوجد أمامه خمسمائة ألف رجل، على ما يروى، فدحروهم.

وفتح (تيمورلنك) مدينة دهلي عنوة في سنة 1378م، ولم يكن أمره غير عابر سبيل، فقد نشأ عن الفوضى التي أسفرت عنها فتوحه قيام دولة مستقلة مؤقتة هنا وهناك، ولما حلت سنة 1517م استولى الملك كابل، الذي هو من ذرية تيمورلنك، على مدينة دهلي، وأسس دولة المغول الكبرى التي كتب لها البقاء مدة ثلاثة قرون، ثم قضى عليها الإنكليز.

وكان (أكبر) - الذي هو من حفدة (تيمورلنك) - من أعظم من عرفتهم بلاد الهند، فقد بلغت بلاد الهند في عهده، الذي دام من سنة 1550م إلى سنة 1605م، ما لم تعرفه من الرخاء قبله، وكان عصره عصر فن العمارة الذهبي في الهند.

حقاً لقد كان (أكبر) راغباً في تشييد المباني، فقد أقام في عشر سنين، بدأت من سنة 1560م، وعلى الصحراء القريبة من آغراء، مدينة (فتح بور) وقصورها التي

تذكرنا أنقاضها العجيبة بمدن رواية ألف ليلة وليلة البائدة، ولما أعياء جوّ هذه المدينة بعد قليل، وهي التي تتمنى بعض الدول الأوربية العظمى أن تكون عاصمة لها، ارتحل عنها هو وسكانها هاجراً لها ولقصورها ومساجدها التي أصبحت مأوى للنمرور وبعض الزهاد بعدئذ.

ولم يقتصر (أكبر) على إقامة المباني، بل كان يعنى بشؤون الفلسفة أيضاً، فقد عنّ له ذات يوم وهو الذي كان متسامحاً غير متين العقيدة، أن يصهر جميع الأديان في دين واحد، فعقد مؤتمراً من رجال الأديان المعروفة، ومنها النصرانية، ليعسط لهم خطته.

ومن دواعي الأسف أن نسي (أكبر) أن كل واحد من مستمعيه كان يعتقد أنه على الحق الواضح وأن الآخرين على الضلال المبين، وأن التوفيق بين المؤتمرين من المستحيل، فلم يسفر ذلك المؤتمر عن غير تشاتم هؤلاء وتلاعنهم.

وأيقن (أكبر) بذلك أن الملوك، وإن قدروا مثله على بناء المدن والقصور في الصحراء، لأعجز من أن يبدّدوا الأوهام القوية التي تسيطر على قلوب الناس، فالتاريخ لم يعرف ديانة قامت على مناقشات باردة أملاها العقل.

ومن مباني الهند الإسلامية: تاج محل في آغرا - يرى في مدينة آغرا عدة أبنية مهمة قامت على الطراز الهندوسي الفارسي العربي، ولاسيما مزار تاج محل الشهير الذي يتطلب وصفه الكامل أكثر من مجلد - بدأ الملك شاهجهان ببناء تاج محل في سنة 1631م ليكون ضريحاً لزوجته التي لم يقدر على سلوها فعزم على إقامة أثر لها أجمل من كل ما عرفه بنو الإنسان، ودعا الملك شاهجهان مهندسي الشرق إلى التسابق في وضع رسمه وحمل أقصى البلاد على جلب أغلى الحجارة وأعزّها لرفعه، وأنفق - على ما يقال - ستين مليوناً في سبيل إنشاء ذلك الأثر العظيم، خلا عوض أعمال العمال الذين كانوا يُسخرون، ورأى (تافرنيه) أن إقامة تاج محل اقتضت جهود عشرين ألفاً من العمال في اثنين وعشرين سنة، فبناء مثل تاج محل لا يقام في أوربا بثلاثة أمثال هذا المبلغ.

وتاج محل هو من المباني الإسلامية النادرة التي تقلّنت من يد التخريب الإنكليزية

المنظمة، والمصادفة هي التي أنقذت تاج محل من عدوان الإنكليز، فقد رأى الحاكم الإنكليزي (لورد بنتنك) أن تاج محل لا يدرّ شيئاً، فاقترح أن يهدم وتتزع فضته وتباع قطعه في الأسواق، ولولا ما لتاج محل، الذي هو من أعظم المباني التي شادها الإنسان، من الأهمية العالمية الكبرى التي تكفي وحدها لزيارة الهند لانكب العالم بهدمه.

### المسلمون في مصر

#### حال مصر حين الفتح الإسلامي

إن دراسة شأن المسلمين في مصر ذو فائدة عظيمة، فمصر من البلدان التي طالت إقامة المسلمين بها، وهي من البلدان التي أنشأوا فيها دولة مهمة، وهي من البلدان التي كان تأثيرهم فيها أعظم مما في أي بلد آخر، ولا شيء يستوقف النظر كحفدة قدماء المصريين الذين قاوموا نفوذ الأغارقة والرومان على الخصوص ثم اعتنقوا دين الإسلام ولغة العرب وحضارة المسلمين الغاليين وصاروا عرباً خالصي العروبة، وفي فارس والهند امتزجت حضارة المسلمين بالحضارة السابقة، وفي مصر توارت أمام حضارة أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) الجديدة حضارة الفراعنة القديمة وحضارة اليونان والرومان التي تتضّدت فوقها في قليل من المدن.

وتثبت دراسة آثار الإسلام الماثلة في مصر أن ذلك الاستبدال كان تاماً، والعرب لم يقتبسوا شيئاً من المباني القديمة الكثيرة التي وجدوها في أنحاء القطر المصري.

وكانت مصر، حين ظهور الإسلام على مسرح التاريخ مطعماً للغزاة الفاتحين منذ قرون كثيرة فقد استولى الإسكندر عليها في سنة 332 ق م، وطرد الفرس منها وأقام مدينة الإسكندرية فيها، ثم نادى أحد قواده، بطليموس سوتر، بنفسه ملكاً عليها في سنة 304 ق م، وملكّت أسرة البطالمة مصر مدة 274 سنة، وكان آخر من تولّوا أمور مصر من تلك الأسرة الملكة كليوباترة الشهيرة، ولما هزم اكتافايوس كليوباترة وانطونيوس في معركة اكسيوم في سنة 30 ق م، أصبحت مصر ولاية رومانية، ولما قسّمت الدولة الرومانية على أثر وفاة ثيودوز في سنة 395م كانت مصر من

نصيب دولة الشرق الرومانية، وظلت مصر تابعة لهذه الدولة حتى سنة 640م، أي السنة التي فتحها العرب فيها.

وداومت مصر في زمن البطالمة على تقاليدها القديمة وعاشت فيه عيش رغد ورخاء وصارت الإسكندرية فيه مركزاً تجارياً مهماً وملجأً ثقافياً، وأقيمت فيه أبنية عظيمة على الطراز الفرعوني، كما تشهد بذلك بعض تلك الأبنية التي لا تزال قائمة في جزيرة الفيلة، فتعد مصدقة لما قلناه من انتحال جميع الفاتحين الجدد لتقاليد المصريين، وأنت إذا ما استنثيت المدن الإغريقية الرومانية التي أقيمت في مصر، كالإسكندرية مثلاً، لم تكد تشعر بأي تأثير كان لأولئك الغزاة في مصر.

وعندما أصبحت النصرانية دين دولة القسطنطينية الرسمي، أمر القيصر ثيودوز، في سنة 389م، بهدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها وجميع ما يذكر الناس بها، واكتفى بتشيويه كتابات المعابد التي كانت من المتانة بحيث لم يقدر على هدمها بسهولة.

ولا تزال مصر ملأى بأنقاض ذلك التخريب الذي أملاه التعصب، وتعدّ تلك الأعمال من أفظع ما عرفه التاريخ من أثر عدم التسامح والبربرية، ومن دواعي الأسف أن كان من بواكير أعمال ناشري الدين الجديد، الذي حلّ محلّ دين الأغارقة والرومان، هدم المباني التي احترمها أكثر الفاتحين منذ خمسة آلاف سنة.

وأدت هذه الأعمال الوحشية بسرعة إلى إخماء الحضارة المصرية وزوال دور الخطّ الهيروغليفي الذي حلّت رموزه في الزمن الحاضر، وأكرهت مصر على انتحال النصرانية وهبطت بذلك إلى دركات الانحطاط شيئاً فشيئاً إلى أن جاء المسلمون.

جاء المسلمون إلى مصر وفتحوا الإسكندرية وكان فتح الإسكندرية مهماً لدى المسلمين كفتح القدس، فقد أسفر عن فتحهم لمصر فتحاً نهائياً، وكان لهم به مصدر ثراء قويّ ونقطة ارتكاز يقدر أن يستندوا إليها لقيامهم بفتوح جديدة أخرى.

ونحن، لكي نقدر أهمية فتح المسلمين للإسكندرية ومقدار تأثيره في العالم، نرى أن نوجز ما كانت عليه حين دخول العرب بلاد مصر.

كانت الإسكندرية من أهم مدن العالم منذ أنشأها الإسكندر (سنة 332 ق م) إلى أن فتحها المسلمون، في مدة ألف سنة، وكان يمكن عدّها، وهي مركز لتجارة البحر المتوسط بأسره، ثانية مدن الإمبراطورية الشرقية، أي المدينة التي تأتي بعد القسطنطينية، وكان البطالمة قد اجتذبوا إليها أشهر علماء العالم وفلاسفته، وكانت تشتمل على أشهر المكتبات والمدارس.

بيد أن ذلك الرقي العلمي لم يدم، فكانت، حين فتحها الرومان بقيادة قيصر (سنة 48 ق م) قد أخذت في الذبول منذ زمن طويل.

كانت الإسكندرية مستطيلة الشكل ذات طول 5000 متر وذات عرض 1800، وكانت تقطعها طرق مستقيمة طويلاً وعرضاً، فتفصلها إحدى هذه الطرق إلى قسمين.

ونعدّ من الآثار المهمة، التي كانت في الإسكندرية، دار الصناعة الكبرى، والقصور الفخمة، ومعبد نبتون الذي كانت أساطينه تستوقف نظر الملاحين من بعيد، والتيمونيوم الذي رأى انطونيوس أن يقضي بقية عمره فيه معتزلاً بعد هزيمته في اكسيوم، والسيزاروم الذي أقام به قيصر منذ قيامه بالحصار، والمسليتين، وغيرهما من الآثار الكثيرة، والأمبوريوم القائم على طول الأرصفة حيث كانت تباع السلع العالمية، والموزيوم حيث كانت المكتبة الشهيرة التي هي أعظم مكتبة في ذلك الحين، ولم يكن في ذلك الدور المنحطّ من العلماء غير أصحاب الكرامات والنحاة واللغويين ورجال الدين، وكان يقوم على تلّ، حيث ينتصب بونيبوس اليوم، معبد السرابيوم ذو الأبواب الضخمة والتمائيل الهائلة المصنوعة من الغرانيت.

وكانت جزيرة فاروس تواجه الإسكندرية وتقوم عليها المنارة الشهيرة التي صنعت من الرخام الناصع، والتي كان نورها يضيء من مسافة عشرة فراسخ من البحر، فتعدّ من عجائب الدنيا السبع، وكانت تتصل تلك الجزيرة بالبرّ بطريق معبدة طولها 1200م.

ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريين سوى عادة اختطاف إحدى العذارى الحسان من أبويها في كل سنة وقذفها في النيل لكي يمنّ إله النيل على

مصر بما تحتاج إليه من ارتفاع الماء وقت الفيضان، وقد استبدل عمرو بن العاص بتلك العادة عادةً لا تزال موجودة إلى يومنا، وهي قذف تمثال خزفي، يدعى العروس، في النيل في يوم معين من كل سنة، وإنني أرى من المحتمل أن تكون هذه العادة، التي ترجع في القدم إلى ستة آلاف سنة، قد أتت من عادة تقريم القرابين البشرية في الديانة المصرية الأولى.

وسار عمرو بن العاص في مصر على غرار عمر بن الخطاب في القدس، فشمّل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطرك لهم كما في الماضي، ومن تسامحه أن أذن للنصارى في إنشاء الكنائس في المدينة الإسلامية التي أسسها.

ولم يكتف القائد بفتح مصر الدنيا، بل زحف بجيشه إلى بلاده النوبة، أي أوغل في إثيوبيا الرومان القديمة على رأس عشرين ألف جندي، ولم تخرج هذه الحملة عن صفة الغزوات التي لا تؤدي إلى تنظيم جدّي مادام المسلمون لم يستقروا ببلاد النوبة استقراراً ثابتاً، بل اقتصروا على غزوها بين وقت وآخر، ومع ذلك فقد اعتنق النوبيون دين الإسلام ولغته كما اعتنقها المصريون، واليوم إذا نظرت إلى النوبيين، رأيتهم قوماً مختلفي الألوان والملاح، فمنهم البيض الذين ينتسبون إلى عرب الحجاز، ومنهم سود الجلود، ومنهم حسنو الخلقة، ومن النوبيات من يشابهن مصريات العصر الفرعوني مشابهة عظيمة.

وغزا المسلمون، غير مرة بلاد الحبشة، أو القسم المجاور منها للبحر الأحمر على الأقل، والمدة بين فتح المسلمين لمصر في سنة 639م وفتح الترك لها سنة 1517م نحو تسعمائة سنة تداولت حكم مصر في أثنائها تسع دول:

خضعت مصر لخلفاء المشرق (639م - 870م).

ثم استقل ولاتها فأسسوا الدولة الطولونية (870م - 905م).

ثم استردّ خلفاء بني العباس سلطانهم عليها لمدة قصيرة (905م - 934م).

ثم قامت فيها الدولة الأخشيديّة القليلة الأهمية (934م - 972م).

ثم استولى عليها الفاطميون (972م - 1171م) الذين اشتملت دولتهم على شمال

أفريقيا وجزيرة سردينية وجزيرة صقلية وجزر البحر المتوسط وسورية فبلغت مصر في عهدهم ذروة الرقي والرخاء.

ثم أصاب خلفاء مصر مثل ما أصاب خلفاء بغداد، فقد استحوذ عليهم صنف من المرتزقة الذين عرفوا في التاريخ باسم المماليك والذين تألف منهم حرسهم، والذين كانوا ينتسبون إلى الشعب الذي ينتسب إليه مرتزقة بغداد ولم يتركوا لهم شيئاً من السلطة الحقيقية.

فلما جاءت سنة 1250م استبدّ المماليك بالحكم نهائياً، وقد دام سلطانهم 267 سنة وأقام المماليك في مصر دولتين من أصلين مختلفين: فأما الدولة الأولى فهي دولة التركمان المماليك (1250م – 1381م) التي كان قوامها أناس من الترك كما في بغداد. وأما دولة المماليك الثانية فهي الدولة المعروفة في التاريخ بدولة الشراكسة من المماليك الذين لم يكونوا من ترك آسيا العليا، بل من بلاد الشركس (1382م – 1516م)، والذين طمع سلاطين دولة التركمان المماليك في قوتهم ليدروا بهم كيد التركمان الأشرار الذين خان أسلافهم العرب فيما مضى، وقد خيَّب هؤلاء الشراكسة ظنهم، فاستبدوا بالحكم، وأقاموا دولتهم التي دامت إلى سنة 1516م حين قضى عليها السلطان سليم الأول وحول مصر إلى ولاية تركية.

هنالك حانت ساعة انحطاط مصر، ثم شملها سلطان الأوربيين الحديث الخفي فلم يزلها إلا انحطاطاً.

### حضارة المسلمين في مصر

ويتصف عصر الفاطميين، الذي بلغت حضارة المسلمين فيه بمصر ذروة الرقي، بنضج الفنون وما تؤدي إليه من الصناعات، وفاقته القاهرة بغداد في الفنون، لا العلوم، فمدارس القاهرة لم تبلغ من الشهرة ما بلغته جامعات بغداد، وسنعود إلى هذا حينما نبحت في النواحي الثقافية من حضارة المسلمين التي لا نبحت في غير قسمها المادي الآن.

وضربت الصناعة والصياغة والحياكة والنجادة والزخرفة بسهم كبير في الكمال



في زمن الفاطميين (972م - 1171م) كما روى المؤرخ العربي المقرئ الذي جاء البحث في آثار زمانه مصدقاً لروايته، فكانت جدران البيوت تغطى بألواح الفاشاني المطلي أو بالملاط الكلسي الرخامي المزين بالزخارف الزاهية والنقوش العربية كما تتمثله بسهولة من بعض القصور العربية الحاضرة في القاهرة، وكانت أرض تلك القصور تفرش بالفسيفساء، أو البسط الموشاة، وكان أثاثها يصنع من الخشب الثمين المرصع بالصدف أو العاج، وكانت متكآتها ذات ريش مزين في لحمته بصور الحيوان، وكانت نمارقها تكسى بالنسائج الأرجوانية الرائعة.

وارتقت الصناعة المعدنية في زمن الفاطميين إلى حد بعيد أيضاً، كما يشهد بذلك ما انتهى إلينا من الأواني والأكواب والأباريق والأطباق والمصابيح وغيرها من ألوف المصنوعات.

وكانت قصور الخلفاء الفاطميين فخمة، ويثبت ما نراه في المساجد المصرية القديمة، التي ظلت قائمة، من الزخرف أنه لم يكن في وصف الكتاب له شيء من المبالغة.

ويمكن تصور ما كان عليه الخلفاء الفاطميون من الثراء عند النظر إلى قائمة الأموال التي روى المؤرخ المقرئ أن الخليفة المستنصر (427هـ - 1037م) اضطر إلى بيعها.

(ذكر في تلك القائمة العجيبة ما لا حصر له من أمداد (29) الزمرد والياقوت واللالئ والمرجان وما إلى ذلك من الحجار الكريمة.

(وذكر فيها 18.000 من آنية البلور، ثمن بعضها ألف دينار (15.000 فرنك)، و26.000 قطعة أخرى من البلور، وبساط من الذهب وزنه 54 أوقية، وأربعمئة قفص كبير من الذهب، و22.000 حلية من العنبر، وعمامة مرصعة بالجواهر قيمتها 13.000 دينار (1.950.000 فرنك) وديوك وطواويس وغزلان ذات حجم

29 - الأمداد: جمع [مد]، وهو مكبال، والمد رطلان عند أهل العراق ورطل وثلاث عند أهل الحجاز، وقيل:

المد هو ملء كفي الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومد يديه بهما، وبه سمي مداً، قاله الفيروز آبادي، وقال: جريت ذلك فوجدته صحيحاً.

طبيعي مصنوعة من الذهب ومرصعة باللآلئ والياقوت، وموائد مصنوعة من  
اليصب كبيرة يستطيع أن يجلس حولها آكلون كثيرون معاً، ونخلة من الذهب في  
صوان من الذهب وثمار وأزهار ذات حجم طبيعي من اللؤلؤ والياقوت، وحديقة ذات  
تراب من الفضة المذهبة، وأرض من العنبر، وأشجار من الفضة وثمرات من  
الذهب والحجارة الكريمة، وخيمة مصنوعة من المخمل والديباج الموشى بالذهب  
دائرتها خمسمائة ذراع (625 قدم) وارتفاعها 64 ذراعاً (90 قدماً) وبسطها تعدل  
حمل مائة بعير، وخيمة أخرى مصنوعة من الإبريز قائمة على أعمدة من  
الفضة، وأخبية وزنها ثلاثة قنابير، وألفان من الزرابي المزخرفة بالذهب ثمن  
إحداها 22.000 دينار، (330.000 فرنك) وثمن أقلها ألف دينار (15.000  
فرنك)، وخمسون ألف قطعة من النسائج الحريرية الموشاة بالذهب)، الخ.

(وذلك إلى أن أمين بيت المال ابن عبد العزيز ذكر في قائمته أكثر من مائة  
ألف سلعة ثمينة ومائتي ألف قطعة من السلاح سلمت أمامه).

أنشئت مدينة القاهرة الجديدة سنة (359هـ-970م)، وهي تضم مدينة الفسطاط  
القديمة.

وتم إنشاء القاهرة بعد أن وضع حجرها الأول بثلاث سنين، وأنفق الفاطميون  
جزءاً كبيراً من دخلهم الواسع على تجميلها وزخرفتها، ولم يأل كل عاهل جهداً في  
أن يسبق سلفه في ذلك.

ومن المباني التي بناها الفاطميون الجامع الأزهر (359هـ - 970 م)، وهو  
أرقى زخرفاً من جامع ابن طولون، ولكنه يجب على من يدرسه أن يذكر أن كثيراً  
من دقائقه تم بعد إنشائه بزمان طويل.

ويتمتع الجامع الأزهر - الذي بدأ بعمله مثل جامعة منذ سنة 375هـ،  
بشهرة واسعة بين المساجد الإسلامية، وللجامع الأزهر الآن تأثير كبير في بلاد  
الإسلام، والطلاب يقصدونه أفراداً وجماعات من أنحاء العالم الإسلامي، وفي  
الجامع الأزهر أساتذة يقبضون رواتبهم من دخله ويدرسون فيه العلوم والآداب  
والتوحيد والفقه والطب والفلك والرياضيات والتاريخ، وكان عدد طلابه اثني عشر

ألفاً فيما مضى، ولا يقل الآن عن هذا العدد كثيراً، ويقوم بنفقات طلابه الفقراء.

### المسلمون في أفريقيا الشمالية

#### أفريقيا الشمالية قبل الفتح الإسلامي

نفصد بأفريقيا الشمالية البلاد التي تشتمل على المغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، وتمتدّ أفريقيا الشمالية من المحيط الأطلسي إلى غرب مصر الملحقة بالشرق على العموم، وتحدّ أفريقيا الشمالية بالبحر المتوسط في الشمال وبأقسام الصحراء المجاورة للسودان من الجنوب.

واستولت شعوب كثيرة على شمال أفريقيا، وكانت لها آثار متفاوتة فيها — وملكها قبل العرب كلّ من القرطاجيين والرومان والوندال والقوط والبيزنطيين. ولم يتبدّل أهل شمال أفريقيا مع كثرة فتوح الأجانب لها، وهؤلاء السكان هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الأقلّ. ويدين البربر في الوقت الحاضر بالإسلام، وكان البربر قبل الفتح العربي يعبدون آلهة قرطاجة كـ(غرزيل) و(مستبمان) وغيرهما من الآلهة القُساء، وروى ترتوليان أن البربر كانوا يُضَحّون ببعض الأولاد تقريباً إلى إله الزمن (كيوان)، وكانوا يعبدون النار أيضاً، وانتحل النصرانية كثير من قبائل البربر المجاورة للمستعمرات اليونانية أيام الحكم المسيحي.

ويقتصر البربري على زوجة واحدة، ولا تتمتع المرأة البربرية بأكثر مما تتمتع به الأوربيات من الحقوق، وإن كانت في وصاية أقلّ مما هنّ فيه.

ولقي المسلمون الأمرين في دور فتوحاتهم، وذلك من مقاومة الملكة البربرية الكاهنة التي ألّفت بين كثير من قبائل البربر وتسلمت القيادة وقاتلت المسلمين وكتب لها النصر في المعركة الأولى وهزمت المسلمين واستولت على جميع شمال أفريقيا، ولمّا عاود المسلمون الكرّة بجيش عرمرم عزمت الكاهنة على تخريب البلاد لمنعهم من فتحها ثانية، فهدمت جميع القرى التي كانت بين طرابلس الغرب وطنجة، وكاد

مصير شعب هذه السيدة، التي ألقت الرعب في قلوب المسلمين والروم، أن يكون على غير ما أصبح عليه لو لم تُقتل في إحدى المعارك.

### استقرار المسلمين بأفريقيا

لاقى المسلمون في فتح أفريقيا من المصاعب ما لم يلاقوه في فتح مصر، ولم يستقر أمرهم بها إلا ببطء شديد، أي أن البربر لم يتوانوا عن مقاتلة المسلمين، وإنهم استردوا استقلالهم غير مرة.

والواقع أن أفريقيا كانت ميداناً لمختلف المذاهب الدينية التي تقيمها وتعدّها فضلاً عن غزو الأجنبي.

نعم، أصبحت أفريقيا نصرانية كمصر، ولكن انتحاليها للنصرانية لم يتم إلا بعد أن أريقت سيول من الدماء، وذلك أن قسطنطين لما جلس على العرش رأى المذاهب الدينية سبب كل اضطراب وهيجان فلم ير غير قهرها بالأسنة والسيوف.

وكانت مقاومة الروم للمسلمين في شمال أفريقيا ضعيفةً كما في مصر، ولولا البربر لثم للعرب فتحها بسرعة، ونشأ عن استبسال البربر في مقاومة المسلمين أن اضطروا المسلمون إلى خوض خمس معارك هائلة وقعت في نحو نصف قرن ليكونوا سادة شمال أفريقيا.

وكانت غزوة المسلمين الأولى في السنة الثالثة والعشرين من الهجرة (644م) وكانت ولاية برقة القريبة من مصر أول ما استولوا عليه، ثم فتحوا ولاية طرابلس الغرب، واستولوا على مدن كثيرة في سنة 646م، ثم جلوا عن البلاد بعد أن أعطوا فدية، ولم يظهروا ثانية إلا بعد عشرين سنة حينما امتشقوا الحسام وأوغلوا في البلاد حتى المحيط الأطلسي.

وبنى المسلمون عاصمة أفريقيا العربية القادمة، القيروان، في سنة 675م، واستولوا على قرطاجة في سنة (691م - 69هـ)، وهزموا الجيش الكبير الذي جمعته ملكة البربر الكاهنة لمقاتلتهم، وصار لهم في سنة 711م من القوة ما فتحوا به بلاد أسبانيا.

وكان يقوم بأمور الحكومة في أفريقيا، حتى أوائل القرن التاسع من الميلاد أمراء بالنيابة عن الخلفاء، فلما صار سلطان الخلفاء هنالك اسمياً منذ عهد (هارون الرشيد) انفرد الأمراء بالحكم واتخذوا القيروان عاصمةً لهم.

وتداول الحكم في أفريقيا من سنة 800م إلى سنة 909م، أحد عشر أميراً من الأغالبة متخذين القيروان عاصمة لهم، وكان همّ هؤلاء الأغالبة مصروفاً إلى مزج العرب بالبربر فتمتعت أفريقيا في أيامهم بطمأنينة عظيمة، ثم قلب البربر دولتهم ونصبوا أميراً فاطمياً من أصل بربري خليفة، فغدت أفريقيا مستقلةً عن العباسيين الذين لم تكن أفريقيا تابعة لهم إلا بالاسم منذ زمن طويل.

وقامت بأمور أفريقيا دول بربرية مستقلة حتى الفتح التركي الذي وقع في القرن السادس عشر من الميلاد، ولم يلبث ذلك الاستقلال البربري أن صار شؤماً على أفريقيا، فقد انقسم البربر إلى زمر لا تحصى تبعاً لغريزتهم التي كانت تمنعهم من تأليف أمة كبيرة، وقامت في أفريقيا دويلات كثيرة مستقلة متقاتلة قياماً لم تر أفريقيا معه سوى بصيص من الحضارة.

### مباني المسلمين في شمال أفريقيا

لم تصب حضارة المسلمين في أفريقيا ما أصابته من الازدهار في مصر والأندلس، وكان للمسلمين في أفريقيا مع ذلك مدن مهمة وبعض مباني ذات قيمة، ولا سيما في زمن الأغالبة، وأنشأ المسلمون في أفريقيا مدناً كالقيروان وتونس وفاس، وجددوا مدناً قديمة كتلمسان وبجاية والجزائر الخ.

ولم تكن حضارة تلك المدن مستمرة، ولم يكن تنافس البربر وقلة استعدادهم للتمدن وغارات أعراب العرب وفقدان المراكز المهمة كبغداد في المشرق والقاهرة في مصر مساعداً على تقدّم الحضارة في أفريقيا، ولا ينتظرنّ القارئ، إذن، بياناً عن مباني إسلامية مبتكرة ثمينة في أفريقيا الشمالية كالتى في الأندلس ومصر، وسيرى القارئ في الفصل الذي خصصناه للبحث في تاريخ فنّ العمارة العربي أن عرب أفريقيا لم يوفّقوا في فهم للتحرّر من النفوذ البيزنطي.

والآن نكتفي بذكر أهمّ مباني المسلمين الأثرية مختارين من مبانيهم الدينية ما سمح الدهر ببقائه في شمال أفريقيا.

### جامع القيروان:

أنشأ فاتح أفريقيا الشهير عقبة بن نافع مدينة القيروان، وبنى فيها في سنة (55هـ - 675م) جامعها الكبير المربع الذي جدّد بناؤه عدّة مرّات فيما بعد، ولا سيما في سنة (205هـ - 820م) والذي تعلوه قباب منخفضة ويحيط به سور وتشرف عليه مئذنة كبيرة مربّعة عريضة القاعدة ذات ثلاث طبقات متفاوتة الاتساع، وذاع طراز هذه المئذنة المربعة في أفريقيا الشمالية، وكان شائعاً في الأندلس على الأرجح. ولجامع القيروان الكبير وآثارها الدينية الأخرى قيمة أثرية كبيرة مع ما نالته من التجديد والترميم غير مرة.

ومسجد سيدي أبي مدين في تلمسان ومسجد الجزائر ومساجد المغرب...

### المسلمون في أسبانيا

#### أسبانيا قبل المسلمين

فكر المسلمون في فتح أسبانيا بعد أن طردوا الروم من شمال أفريقيا وردّوا جماع البربر، وتمّ لهم بصعوبة فتح الأقطار الأفريقية التي كانت مسرحاً لحروب روما وقرطاجة وبنغازي ماسينيسه وجوغورته وغيرهما من القادة المشهورين. وروى ابن خلدون أن الجيش الأول الذي عبر مضيق جبل طارق ودخل بلاد أسبانيا كان مؤلفاً من اثني عشر ألف مقاتل، وأنّ هذا الجيش كان من البربر تقريباً. ونرى قبل أن نقصّ خبر ذلك الفتح الإسلامي، أن نوجز تاريخ أسبانيا قبله، ففي ماضي الأمم سرّ حوادثها الحاضرة، وبماضي أسبانيا يفسر سبب السرعة في فتح أتباع الرسول (صلّى الله عليه وآله) لها.

كان للفينيقيين والأغارقة والقرطاجيين مستعمرات في أسبانيا التي يسكنها السلت الغوليون ومن لم يعلم أصلهم جيّداً من الايبيريين والليغوريين، وأنشأ القرطاجيون مدينة قرطاجنة في أسبانيا بعد أن فتحوها لتكون تابعة لقرطاجة، ثم فتح الرومان

بلاد أسبانيا على أثر الحروب اليونانية، وذلك قبل الميلاد بقرنين. وملك الرومان بلاد أسبانيا حتى القرن الخامس من الميلاد، وازدهرت مدن فيها أيام حكمهم.

وكان لأسبانيا نصيب من إدمار روما بعد أن كان لها حظ من إقبالها، فقد انقضّ الوندال والألين والسويف الذين هم من برابرة الشمال على أسبانيا بعد أن خربوا بلاد الغول، ولم يلبث القوط، الذين هم من البرابرة أيضاً، أن قهروهم، واستولوا على أسبانيا في القرن السادس من الميلاد، وظلّوا سادة لها تماماً إلى أن جاء المسلمون.

### استقرار المسلمون بأسبانيا

دخل جيش إسلامي مؤلف من اثني عشر ألف جندي بلاد أسبانيا في سنة 711م، أي في زمن الخليفة العاشر الذي كانت دمشق عاصمته. ومن يقطع القسم الجنوبي الخصب من بلاد أسبانيا يعلم مقدار التأثير الذي أثر به في نفوس المسلمين حينما استولوا عليه، فقد بهرتهم تربته وهواؤه ومدنه ومبانيه. ووصفت أسبانيا في كتاب أرسله قائد الجيش الإسلامي إلى الخليفة الأموي بأنها: (شامية في طبيها وهوائها، يمنية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في معادن جواهرها، عدنية في منافع سواحلها).

واستولى المسلمون على ساحل أسبانيا مبتدئين بجبل طارق الذي اقتبس اسمه من اسم طارق بن زياد البربري الذي هو من رجال القائد المسلم موسى بن نصير. وكان المسلمون قد قضوا خمسين سنة في فتح أفريقيا البربرية، ولم يقضوا سوى بضعة أشهر في فتح جميع أسبانيا النصرانية، وتقرر مصير مملكة القوط في المعركة الأولى المهمة التي خاض المسلمون غمارها، والتي كان رئيس أساقفة أشبيلية حليفاً لهم فيها، والتي خسر القوط فيها ملكهم وخسروا أسبانيا.

وعجب (موسى بن نصير) من ذلك النصر السريع الذي لم يتوقعه، ولا غرو، فقد كان يتصور ما لقيه من الشدائد في فتح أفريقيا وكان يعتقد أنه سيلقى في أوروبا من

الشجاعة وحبّ الاستقلال ما لقيه عند البربر، فلما تبين خطأه أراد أن يشارك طارق بن زياد في مجد الفتح، فعبر البحر بجيش مؤلف من اثني عشر ألف جندي عربي وثمانية آلاف جندي بربري ليوصل فتح أسبانيا.

أتمّ المسلمون فتح أسبانيا بسرعة مذهشة، وذلك أنّ المدن الكبيرة سارعت إلى فتح أبوابها للغزاة، فدخل قرطبة ومالقه وغرناطة وطليطلة صلحاً تقريباً، ووجد المسلمون في طليطلة التي كانت عاصمة النصارى تيجان خمسة وعشرين ملكاً قوطياً، وأسروا أرملة الملك القوطي، (رودريك) التي تزوّجها ابن القائد موسى بن نصير فيما بعد.

وأحسن المسلمون سياسة سكان أسبانيا كما أحسنوا سياسة أهل سورية ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم وحقّ المقاضاة منهم، ولم يفرضوا سوى جزية سنوية تبلغ ديناراً (15 فرنكاً) عن كلّ شريف ونصف دينار عن كلّ مملوك، فرضي سكان أسبانيا بذلك طائعين، وخضعوا للمسلمين من غير مقاومة، ولم يبق على المسلمين إلا أن يقاتلوا الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرضين.

ولم يدم القتال طويلاً، وذلك أن المسلمين كسروا كلّ مقاومة، ودانت لهم جميع أسبانيا في سنتين، ولكن لا إلى الأبد، فقد استردّ النصارى ما خسروه بعد جهاد ثمانية قرون.

ويُروى، مع التوكيد، أن موسى بن نصير فكّر بعد فتح أسبانيا في العودة إلى سورية من بلاد الغول وألمانيا وفي الاستيلاء على القسطنطينية وفي إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن، وأنه لم يعقه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود إلى دمشق، فلو وفقّ موسى بن نصير لذلك لجعل أوربا مسلمة، ولحقّق للأمم المتمدّنة وحدتها الدينية، ولأنقذ أوربا، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه أسبانيا بفضل المسلمين.

ولنتكلّم أولاً، عن امتزاج أهل البلاد بسادتهم الجدد قبل أن نقصّ عليك ماذا تمّ للمسلمين في أسبانيا.

كان أوائل الغزاة لإسبانية المسلمون من العرب والبربر، وكان يوجد بضع قبائل



سورية في الجيوش التي استولت عليها بعدئذ، ولم يكن عدد ما اشتملت عليه هذه القبائل كثيراً، ولم يظهر أمرها إلا في دور الفتح الأول، فماذا كان شأن العرب والبربر وأهل أسبانيا بعد ما دانت أسبانيا للمسلمين؟

كانت أسبانيا، التي تم فتحها في سنة 711م، تابعة لخلفاء دمشق حتى سنة 756م، وكان ينوب عن هؤلاء الخلفاء أمراء في شؤون حكمها، فلما كانت سنة 756م، انفصلت أسبانيا عن خلافة المشرق، وقامت فيها دولة مستقلة عرفت في التاريخ بخلافة قرطبة التي أصبحت عاصمة لها.

وأخذ نجم المسلمين السياسي في أسبانيا يأفل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة الإسلامية فيها ذروتها، وشرع النصارى الذين دحرهم المسلمون إلى الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفتن وصاروا يُغيرون عليهم.

واستغاث عرب أسبانيا ببربر المغرب في سنة 1085م، ليحولوا دون توالي انتصارات ملك قشتالة وليون: الأذفونش السادس، ولم يلبث هؤلاء البربر الذين جاءوا إلى أسبانيا حلفاء للعرب المسلمين أن ظهروا لهم بمظهر السيد، وأسفر تنازع المسلمين والبربر عن انقسام دولة المسلمين إلى عشرين دويلة وعن قبض المرابطين والموحدين وغيرهم من البربر على زمام الأمور وعن تكمّش العرب إزاء البربر وعن تدرّج الحضارة الإسلامية إلى الانزواء.

واغتم النصارى تلك الفرص، فوسّعوا دائرتهم على حساب المسلمين وأقاموا دويلات كثيرة كبلنسية وقشتالة ومرسية وغيرها وانتهت إلى أربع دول وهي: البرتغال ونبرة وأرغونة وقشتالة

ولم يبق للمسلمين في أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزوّج ملك أرغونة (فرديناند) الكاثوليكي ملكة قشتالة ايزابلا، وتمّت بذلك وحدة دينك الدولتين، حاصر في سنة 1492م غرناطة، التي كانت آخر معقل للإسلام في أسبانيا، وفتحها، ثم ضمّ إليه مملكة نبرة، فأصبحت جميع أسبانيا خلا البرتغال، تابعة لعرش واحد.

ودامت دولة المسلمين في أسبانيا نحو ثمانية قرون، أي ما يقرب من مدة سلطان الروم، وأدى انقسامها إلى زوالها أكثر مما أدت إليه الغارات الأجنبية، فالمسلمون وإن كانت عبقريتهم الثقافية من الطراز الأول، لم يبد نبوغهم السياسي غير ضعيف. وعاهد (فرديناند) المسلمين على منحهم حرية الدين واللغة، ولكن سنة 1499م لم تكد تحلّ حتى حلّ بالمسلمين دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قروناً، والذي لم ينته إلا بطرد المسلمين من أسبانيا، وكان تعمد المسلمين كرهاً فاتحة ذلك الدور، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من المسلمين دفعة واحدة، ونصح كردينال طليطلة التقي، الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس جميع من لم يتصرّ من العرب رجالاً ونساءً وشيوخاً وولداناً، ولم ير الراهب الدومينيكي (بليدا) الكفاية في ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من المسلمين ومن بقي على دينه منهم، وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من المسلمين، فمن المستحبّ إذن قتل جميع المسلمين بحدّ السيف لكي يحكم الربّ بينهم في الحياة الأخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم، ولم تر الحكومة الإسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكي الذي أيده الاكليروس في رأيه لما قد يبديه الضحايا من مقاومة، وإنما أمرت في سنة 1610م، بإجلاء المسلمين عن أسبانيا، فقتل أكثر مهاجري المسلمين في الطريق، وأبدى الراهب البار (بليدا) ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم، وهو الذي قتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من 140.000 مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقيا.

وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر، ويقدر كثير من العلماء، ومنهم سيديو، عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا، منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير، بثلاثة ملايين، ولا تعدّ ملحمة سان بارثلمى إزاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضدّ المسلمين.

ومما يرثى له أن حرمت أسبانيا عمداً هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية.

ثم رأت محاكم التفتيش أن تُبَدِّلَ كلَّ نصرانيٍّ ترى فيه شيئاً من النباهة والفضل، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هبطت أسبانيا إلى أسفل درجات الانحطاط بعد أن بلغت قمةً المجد، وأن انهار معها كلُّ ما كان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان.

وها هي ذي عدّة قرون على ذلك الدور من غير أن تستطيع أسبانيا أن تنهض من هبوطها مع ما بُذِلَ من الجهود، وقد صار عدد سكان طليطلة في الوقت الحاضر 17.000، بعد أن كان 200.000 أيام الحكم الإسلامي، وقد أصبح عدد سكان قرطبة في الوقت الحاضر 42.000 بعد أن كان مليوناً أيام الحكم الإسلامي، ولم يبق من مدن ولاية شلمنقة، التي كان عددها أيام الحكم الإسلامي 125 مدينة، سوى 13 مدينة.

وسيرى القارئ في الفصل الذي خصصناه للبحث في وراثي المسلمين مقدار الانحطاط الذي أسفر عن إبادة المسلمين، وإذا كنتُ قد أشرتُ إلى هذا هنا فلأن شأن المسلمين المدنيّ لم يبدُ في قطر ملكوه كما بدا في أسبانيا التي لم تكن ذات حضارة تذكر قبل الفتح الإسلامي فصارت ذات حضارة ناضرة في زمن الإسلام، ثم هبطت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط بعد جلاء المسلمين.

### حضارة المسلمين في أسبانيا

كانت أسبانيا النصرانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك القوط، ولم يكد المسلمون يتمّون فتح أسبانيا حتى بدأوا القيام بإرساء الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقلّ من قرن أن يحيوا ميّت الأرضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا أفخم المباني، ويوطّدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا بدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التي ظلّت وحدها ملجأً للثقافة في أوربا زمناً طويلاً.

وأخذت حضارة المسلمين تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن إلى العرش على الخصوص، أي منذ انفصال أسبانيا عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة في سنة 756م، فغدت قرطبة، بالحقيقة أرقى مدن العالم القديم مدّة ثلاثة قرون.

ولم يكد عبد الرحمن يقبض على زمام الحكم في أسبانيا حتى أخذ يسعى في حمل المسلمين على عدّ أسبانيا وطناً حقيقياً لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذي هو من عجائب الدنيا، وصار ينفق دخل بيت المال في إصلاح البلاد وعمرانها بدلاً من إنفاقه في الغزوات البعيدة، ثم سار خلفاؤه على سنته في ذلك.

وامتازت حضارة المسلمين في أسبانيا في ذلك العهد بميل المسلمين الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشأ المسلمون في كلّ ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمائية والطبيّة بنجاح، وسنرى في فصول أخرى أهمية اكتشافاتهم في هذه العلوم المختلفة.

ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقلّ من ذلك، فكانوا يُصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسيج والجلود والسكر إلى أفريقيا والشرق بواسطة تجّار من اليهود والبربر.

وبرع المسلمون في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات، ولا يوجد في أسبانيا الحاضرة من أعمال الريّ خلا ما أتمّه المسلمون إلى حقول الأندلس الخصبة كزراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن والموز، الخ، وأصبحت أسبانيا التي هي صحراء حقيقية في الوقت الحاضر، عدا بعض أقسام في جنوبها، جنة واسعة بفضل أساليب المسلمين الزراعية الفنية.

ووجّه المسلمون نشاطهم إلى كلّ فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون، ولم تقلّ أعمالهم العامة عن أعمال الرومان أهميّة، فأكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافي والمساجد في كلّ مكان.

وظنّ رئيس الأساقفة الأسبانيّ (أكزيمينيس) أنه بإحراقه مؤخراً ما قدر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه المسلمين (أي ثمانين ألف كتاب)، محا ذكرهم من

صفحات التاريخ إلى الأبد، وما درى أنّ ما تركه المسلمون من الآثار التي تملأ بلاد أسبانيا خلا مؤلفاتهم يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد.

وكانت عاصمة الخلافة، قرطبة، داراً للعلوم والفنون والصناعة والتجارة وتستطيع أن تقابلها بعواصم دول أوربا العظمى الحديثة، وهي على خلاف قرطبة الحاضرة التي أضحت مقراً للأموات، ومن المؤلم أن كنت أسير عدّة ساعات في هذه المدينة الواسعة التي كان يقيم بها مليون شخص، قبل أن أصادف ماراً نشيطاً. أجل، كان النصر العظيم أن أحلّ النصارى الصليب محلّ الهلال في قرطبة، ولكن الهلال كان يهيمن على أغنى مدن العالم وأجملها وأكثرها أهلاً، فيشرف الصليب اليوم على بقايا تلك الحضارة القويمة التي قوّضها عبّاده من غير أن يقيموا حضارة أخرى مقامها.

وكان نظام الحكم الإسلامي في أسبانيا مشابهاً لنظام الحكم في بغداد، أي كان الخليفة، وهو (يعتبر نفسه) وكيل الله في الأرض، حاكماً مطلقاً جامعاً لجميع السلطات المدنية والدينية والحربية مع اختياره مجلساً لإسداء النصّح إليه في جميع أمور الدولة.

وكان يقوم بحكم الولايات ولادة ينصبهم الخليفة جامعون لمثل سلطاته كلّها. وكان قانون الدولة المدنيّ يستند في نصوصه إلى القرآن وتفسير القرآن، فيتخذ القضاة القرآن دستوراً في أحكامهم، وكانت المحاكم على درجتين، فتقوم محاكم الدرجة الثانية (الاستئناف) بإصلاح ما تصدره محاكم الدرجة الأولى من الأحكام. وكان الخليفة كملوك ذلك العصر، غير ذي جيش دائم، وكانت الكتيبة الوحيدة المسلّحة على الدوام مؤلّفة من حرس وليّ الأمر الشخصي الذي يبلغ عدده عشرة رجال أو اثني عشر رجلاً، وإن كان يستطيع أن يجنّد كلّ شخص قادر على حمل السلاح من أبناء الدولة.

وكانت البحرية قويّة جدّاً، وكانت تتمّ بفضلها صلات المسلمين التجارية بجميع مرافئ أوربا وآسيا وأفريقيا، وظلّ المسلمون وحدهم سادة البحر المتوسط زمناً طويلاً.

وكان دخل بيت المال يقوم على الضرائب والمناجم، كما في بغداد، وكانت مناجم الفضة والذهب والزئبق غنية في ذلك الزمن، وكانت الضرائب تتألف من العُشر العينيِّ لمحاصيل أراضي المسلمين، ومن الجزية التي يعطيها النصارى واليهود، ومن الجمارك والمكوس(30) فبلغ دخل دولة الخلافة في أسبانيا ثلاثمائة مليون إبان عظمتها، أي في عهد الحكم الثاني.

وكان باب المناصب مفتوحاً للنصارى وكان النصارى يُستخدمون في الجيش غالباً، ولم يكن توالد المسلمين والنصارى غير قليل، وكانت أمّ الخليفة عبد الرحمن الثالث نصرانية.

واستطاع المسلمون أن يغيّروا أسبانيا مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية، ولم يقتصر تغيير المسلمين لأسبانيا على هذين الأمرين، بل أثّروا في أخلاق الناس أيضاً، فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها، التسامح الذي هو أئمن صفات الإنسان وبلغ حلم مسلمي أسبانيا نحو الأهليين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر اشبيلية النصراني الذي عُقد في سنة 782م ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عقد في سنة 852م، وتعدّ كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم الإسلامي من الأدلة على احترام المسلمين لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم.

وأسلم كثير من النصارى، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في شيء كبير، وهم الذين استعربوا فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلّد مناصب الدولة، وكانت أسبانيا الإسلامية بلد أوربا الوحيد الذي تمتّع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيراً جداً.

وكان مسلمو أسبانيا يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من

30 - لا يخفى أن الضرائب الإسلامية تنحصر في الخمس والزكاة والجزية والخراج، كما فصلناه في الفقه، أما مثل الجمارك وما أشبه فلا يكون في الإسلام.

الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخراً، فتؤثر في نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة.

وللفروسية الإسلامية شروطها كما للفرسية الأوروبية التي ظهرت بعدها، فلم يكن المرء ليصير فارساً إلا إذا تحلى بهذه الخصال العشر: (الصلاح والكرامة ورقة الشمائل والقريحة الشعرية والفصاحة والقوة والمهارة في ركوب الخيل والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب).

ونرى تاريخ المسلمين في أسبانيا حافلاً بالأنباء الدالة على كثرة انتشار تلك الخصال ومن ذلك أن والي قرطبة لما حاصر، في سنة 1139م، مدينة (طليطلة) التي كانت بيد النصاري أرسلت إليه الملكة (بيرنجر) التي كانت فيها من بلغه أنه لا يليق بفارس بطل شهم كريم أن يحاصر امرأة، فارتد القائد العربي من فوره محيياً الملكة.

ويقولون أن الدين يهذب الطباع، وأذهب إلى هذا الرأي أحياناً وإن لم يكن في التاريخ سوى أدلة قليلة على ذلك، وإنما الذي لا ريب فيه هو أن قواعد الفروسية التي جاء بها المسلمون أدت إلى إصلاح تلك الطباع أكثر من جميع التعاليم الدينية. نعم، إن إحراق السيد (النصراني) شيخاً ليسلب ماله يبيده لنا وحشاً، غير أن طبائع أهل ذلك الزمن كانت تبيح ذلك، وأن كل أمير نصراني كان يقترب مثل ذلك، (حتى محاه الإسلام).

ومن ذلك أن دعا الطاغية بطره ملك غرناطة، أبا سعيد، إلى قصره فأعجبه ما كان يتحلى به الملك أبو سعيد من الجواهر، فلم ير غير سلبه إياها بقتله غدرًا (31). فآثام مثل هذه مما لم يقتربه المسلمون قط، والمسلمون أحسنوا كثيراً إلى الحضارة بنشرهم من المشاعر في أنحاء العالم ما يحول دون ارتكابها.

واعترف الكتاب القليلون الذين درسوا تاريخ المسلمين بفضلهم الخُلقي، وإليك ما

31 — أهدى ملك أسبانيا إلى أحد أمراء الإنكليز ياقوتة حمراء من تلك الجواهر التي سرقت من الملك المسلم، وهي الآن من الجواهر التي يزين بها تاج ملكة إنكلترا المصون مع الجواهر الملكية الأخرى في (غرفة حل التاج) بلندن، فأتيح لي أن أشاهدها (غوستاف لوبون).

قاله العالم الثبّت مسيو سيديو:

(كان المسلمون يفوقون النصارى كثيراً في الأخلاق والعلوم والصناعات، وكان ومن طبائع المسلمين ما لا تراه في غيرهم من الكرم والإخلاص والرحمة، وكان من طبائعهم التي امتازوا بها في المحافظة على الكرامة ما يؤدي الإفراط فيه إلى المبارزة والشحناء. وكان ملوك قشتالة ونبرة على علم من صدق المسلمين وقراهم، ولم يتردد الكثير منهم في المجيء إلى قرطبة ليعالجه أطباؤها المشهورون. وكان أفقر المسلمين يحافظ على شرف أسرته محافظة أشدّ الرؤساء صلفاً).

### مباني المسلمين في أسبانيا

استخدم المسلمون في بدء إقامتهم بأسبانيا مهندسين من الروم، ولكن المسلمين لم يلبثوا أن أثروا بعقريتهم الفنية في أولئك المهندسين، وبلغ إبحاؤهم في أمور الزينة مبلغاً صار يتعذر معه على أقلّ الناس دقّة أن يخلط مبانيهم بالمباني البيزنطية.

ولم يلبث المسلمون في أسبانيا أن تحرّروا من النفوذ البيزنطي كإخوانهم في مصر، فاستبدلوا النقوش العربية الممزوجة بالكتابة الزخرفية الذهبية، وأكثروا كما في المشرق من المتدليات المؤلّفة من الأقواس الصغيرة التي يعلو بعضها بعضاً على شكل نخاريب النخل فيكون منظرها ساحراً عجباً حينما يُزيّن بها داخل إحدى القباب كما في الحمراء، وكانت هذه الأقواس على شكل نعل الفرس الظاهر في البداية، ثم اختلطت بأنواع الأقواس الملفوفة المصنوعة على رسم البيكارين، والأقواس الأخرى البسيطة المصنوعة على رسم البيكارين والأقواس المنقوشة على شكل الأزهار والأغصان المصنوعة على رسم البيكارين الخ.

ونعدّ جامع قرطبة الذي بني في القرن الثامن من الميلاد وبعض المباني في طليطلة من آثار الدور الأول لفنّ العمارة الإسلامي بأسبانيا، ونعدّ منارة لاجيردة (لعبة الهواء) الأشبيلية، التي أقيمت في القرن الثاني عشر من الميلاد والقصر الأشبيلي من آثار العهد الأوسط لفنّ العمارة الإسلامي ونعدّ قصر الحمراء الغرناطي الذي شيد في القرن الرابع عشر من الميلاد عنواناً لما انتهى إليه فنّ العمارة



الإسلامي.

ولنتكلم الآن بإيجاز عن المباني المهمة التي تركها المسلمون في أسبانيا.

### المباني الإسلامية في قرطبة:

إنّ جامع قرطبة الشهير الذي بدأ عبد الرحمن بإنشائه في سنة 780م، والذي يعدّه علماء المسلمين قبلة أنظار المغرب، من أجمل المباني التي شادها المسلمون في أسبانيا، قال كندة:

(بني ذلك المسجد الجامع في أواخر القرن الثامن من الميلاد بأمر عبد الرحمن الأول وإشرافه، وروي أنّ عبد الرحمن الأول هذا أراد أن يجعله مماثلاً لجامع دمشق على أوسع نطاق، ومذكراً للناس بفيض زخارفه، بعجائب هيكل سليمان القدسيّ المجيد الذي هدمه الرومان. وكان جامع قرطبة يفوق معابد الشرق قاطبةً بعظمته وروعته، وترى ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً، وترى قبتّه الهيفاء تقوم على روافد من الرّخام، فيتألّف منها تسعة عشر صحناً واسعاً طويلاً وثمانية وثلاثون صحناً ضيقاً عرضاً، وترى في وجهه الجنوبيّ المقابل للوادي الكبير تسعة عشر باباً مصفّحاً بصفائح برونزية عجيبة الصنع خلا الباب المتوسط الذي كان مصفّحاً بألواح من الذهب، وترى في كلّ من وجهه الشرقيّ الجانبي ووجهه الغربيّ الجانبي تسعة أبواب مشابهة لتلك الأبواب).

ولا يزال جامع قرطبة من المباني المهمة مع ما أحدثه الأسبان فيه من التلف والفساد، ومع تلك الكنيسة الواسعة التي أقاموها فيه لتطهيره، ومما صنعه الأسبان أن كلّسوا زخارف جدره وكتاباتّه ونزعوا منه فسيفساء أرضه، وباعوا تحف سقفه الخشبية المحفورة المزوّقة، فيجب على من يرغب في تمثّل شيء مما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر إلى محرابه الذي تقلّت وحده من التخريب.

ويقوم سقف جامع قرطبة على أعمدة، ويتكوّن من اجتماع هذه الأعمدة صفوف من الصحن الكبير المتوازية المؤدّية إلى باحته، وتتقاطع هذه الصحن وصحن أخرى كتقاطع الأضلاع الذي ينشأ عنه زوايا قائمة، ويتألّف من مجموع تلك الأعمدة

غابة من الرخام واليصب والغرانيت، وتعلو تلك الأعمدة أقواس رائعة منصّدة مصنوعة على شكل نعل الفرس.

ولا يؤدي ارتفاع سقف جامع قرطبة الذي لا يزيد على عشرة أمتار إلى ما نراه في الكتدرائيات القديمة، التي أُقيمت على الطراز القوطي في القرون الوسطى، من الجلال الأدجن ككتدرائية كولونية وستراسبرغ، وإنما ينشأ عن تنضّد أقواسه وتنوّع زخارفه منظر مبتكر بديع قلّمًا نجد مثله في مبان أخرى.

وأما محراب جامع قرطبة فإننا من غير أن نجاري (جيرول دوبرانجه) في قوله: (إنك لا ترى أحسن من زخرفه وسنائه في أيّ أثر قديم أو حديث مماثل)، نعترف بأنه من أجمل ما تقع عليه عين بشر.

وأقيم جامع قرطبة أيام كان الفنّ الإسلامي في فجره، وتدرّج الفنّ العربي إلى الكمال، فأقيمت على الطراز العربي الكامل مبان عجيبة كـ(الحمراء) تخبر، بما لها من الروعة والجلال قادم الأجيال بما كان للقوم الذين أشادوها من الذوق الفنيّ وحبّ كلّ ما هو ساطع بديع عجيب.

وأرى، قبل أن أغادر قرطبة أن أذكر أيضاً قصر (الزهراء) الساحر الذي بناه عبد الرحمن في القرن العاشر بعيداً بضعة فراسخ من قرطبة، والذي درس رسمه وقصّ التاريخ نبأه، وإن الضبط الذي وصف به كتاب المسلمين جامع قرطبة لدليل على صدق ما وصفوا به قصر الزهراء من الأوصاف التي أوجزها (جيرول دوبرانجه) فيما يأتي:

(كان يُزين ذلك القصر 4300 عمود من الرخام الثمين الكامل الصنع، وكانت رداه مبلّطة بقطع من الرخام المنقوش بمهارة على ألف شكل، وكانت حواجز هذه الردهاء مغطّاة بالمرمر ومزخرفة بالأفاريز ذات الألوان الباهرة، وكانت سقوفه ذات نقوش ذهبية لازوردية متشابكة، وكانت جسور هذه السقوف وترايعها الأرزية دقيقة متقنة الصنع، وكان في بعض رداه عيون عجيبة تصبّ مياهها الصافية في صهاريج رخامية ذات أشكال منوّعة أنيقة، وكان في ردهة الخليفة عين مصنوعة من اليصب ومزيّنة بإوزة عجيبة من الذهب عملت في القسطنطينية، وكانت الدرة

الشهيرة، التي أتحف قيصر الروم عبد الرحمن الناصر بها، تعلو هذه العين، وكانت الحدائق العظيمة ذات الأشجار المثمرة والرياحين قريبة من القصر، وكان في وسط هذه الحدائق وعلى مكان مشرف منها، قبة الخليفة القائمة على أعمدة رخامية بيض ذات تيجان مذهبة، وكان في وسط هذه القبة حوض كبير من الرخام السماقي مملوء بالزئبق الذي كان يتدفق بشكل عجيب تدفقاً مستمراً فكانت أشعة الشمس تتعكس عليه بما يأخذ بمجامع القلوب، وكان في هذه الحدائق الجميلة حمامات ذات صهاريج رخامية وبسط ورياش حريري ذهبي موشى بصور غريبة طبيعية من الأزهار والغاب والحيوانات. وجلب الرخام الأبيض إلى قصر الزهراء من المريّة، والوردي والأخضر من قرطاجة وتونس، وصنعت في سورية، وفي القسطنطينية على رواية، عينه الذهبية المنقوشة، وكان يرى هنالك ما جلبه أحمد الرومي من الصور البشرية المنقوشة، وأمر الخليفة بأن تنصب هنالك صور من الذهب والحجارة الثمينة لاثني عشر حيواناً مصنوعة في المعمل الملكي بقرطبة، فكانت المياه تتدفق من أفواهها تدفقاً مستمراً. وكان سقف ردهة الخليفة مذهباً مؤلفاً من قطع رخامية لامعة مختلفة الألوان وكانت جدره مزخرفة مثل سقفه، وكان في وسط هذه الردهة حوض رخامي عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذه الردهة ثمانية أبواب معقودة على حنايا من العاج والأبنوس مزينة بالذهب والحجارة الثمينة قائمة على أعمدة من الرخام المتنوع والبلور الصافي.

وروى ابن حيان أن قصر الزهراء اشتمل على 4.312 سارية مختلفة الحجم، وأنه جلب 1.013 سارية منها من أفريقيا و19 سارية منها من روما، وأن قيصر الروم أتحف عبد الرحمن بـ 140 سارية منها، وأن بقية السواري أخذت من مختلف بقاع الأندلس وطركونة وغيرها. وصنعت أبواب قصر الزهراء من الحديد أو من النحاس المموه بالذهب والفضة).

### المباني الإسلامية في طليطلة:

مدينة طليطلة القديمة الحاضرة صورة صادقة لما كانت عليه المدن الأوروبية في

القرون الوسطى وما هو ماثل فيها الآن من الكندرائية الفخمة ودير سان جوان دولوس ريس يكفي لشهرتها، فإذا استثنيت هذين الأثرين رأيتَ في كل خطوة منها ما يساعد على درس تأثير المسلمين في الأمم التي حلت محلهم. ولا يزال يحيط بطليطلة حصونها وأبراجها الإسلامية، ونذكر من أبوابها القديمة باب بيزاغرة (باب شقرة) الشهير الذي أنشئ في القرن التاسع من الميلاد، وباب الشمس الشهير الذي أنشئ في القرن العاشر من الميلاد، فيصعب عليّ أن أعدّه - كما أعدّه غيري - من الآثار التي شيدت على الطراز البيزنطي، وذلك لشكله الإسلامي العام ولما يُرى فيه من الأقواس والزخارف الإسلامية.

### المباني الإسلامية في غرناطة:

تتجلى عظمة فنّ العمارة الإسلامي الأندلسي في قصر الحمراء الذي أنشئ في القرن الرابع عشر من الميلاد.

أقيم قصر الحمراء على منحدر جبل شلير الذي يُشرف على مدينة غرناطة وعلى المروج الواسعة الخصيبة، والذي يعدّ من أجمل أمكنة العالم.

وإذا ما نظر المرء إلى الحمراء من أسفل الصخور التي تتوجّها رآها أبراجاً مربعة ذات ألوان قرمزية يناطح أعلاها السحاب ويسفر أدناها عن نبات أخضر كثيف، وإذا ما مرّ المرء من تحت الأشجار التي تحفّ بها وسمع تغريد الطيور التي عليها وخرير الماء الذي يجري في السواقي والقنوات القريبة منها فدخل ذلك القصر الشهير رأى ما تغنّى به الشعراء، ولا سيّما المشرقيّات (فكتور هوغو) الذي أنشد قائلاً:

(أيتها الحمراء! أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام! أيتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان والمائلة إلى الانهدام! حينما تتعكس أشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الأبواب).

ويتعذّر وصف الحمراء بوصف دقيق، وقلم الرسم وحده هو الذي يستطيع ذلك.

وكلّ ما في قصر الحمراء عجيب، والمرء يقضي العجب من جدرانه المزيّنة بالنقوش الإسلامية الأنيقة المحفورة المفرضة وأقواسه المصنوعة على رسم البيكارين وقبابه ذات الزخارف الساحرة المتدلّية (المقرنصات) المطلّية فيما مضى باللازورد والأرجوان والإبريز.

ولا تشابه الحمراء قصور أوربا مطلقاً، شأن كثير من القصور العربية، فهي عاطلة من المقدّم، وتتحصّر زخارفها في داخلها الذي نرى كلّ شيء فيه عجيباً، وإن كان صغيراً، وليس فيها رداه فخمة ممّلة باردة مثل رداه قصورنا الاوربية رُسمت ليعجب بها الزائرون، لا لتلائم ساكنيها.

ويمكننا أن نتمثّل حياة ملوك المسلمين عند النظر إلى الحمراء، فالعين لا ترى من نوافذها غير آفاق لا نهاية لها، وهي تُثير ذكريات ما كان يحدث في رياضها الغنّ التي كانت حظايا ملوك غرناطة، وقد كنّ من أجمل غواني الغرب والشرق، يتفیان في غياضها ويتنسّم شذا أزهارها النادرة.

وكان يحفّ بصاحب تلك العجائب جمع من المتقنّين والعلماء والأدباء الذين كانوا أعلام ذلك العصر، وكان لذلك صاحب أن يعدّ الملوك الآخرين من الحاسدين له، وكان له أن يكتب على باب قصره كما صنع ذلك الملك الهندي الذي حكّت عنه القصة: (إن كان في الأرض فردوس فهو هذا).

واشتهر أهمّ أقسام قصر الحمراء بفضل الفوتوغرافية والرسم، فذاع صيت قاعة الأسود وغرفة الأختين وحجرة بني سراج وردة العدل، والقارئ الذي يُنعم النظر في الصور يرى أنها ليست دون شهرتها، وانتهت الشهرة إلى قاعة الأسود على الخصوص، قال جيرول دوبرانجه:

(يعجز الإنسان عن بيان ما يشعر به حين يمرّ من قاعة البركة ويدخل قاعة الأسود فيرى فيها الأوراق التي تزيّنها الأقواس المنوّعة المزخرفة بالنقوش المزهرة والزخارف المتدلّية والتخاريم التي كانت ذهبية ملوّنة، وتقع عينه على غابة من الأعمدة الهيف التي وُضع بعضها منفرداً وبعضها مزدوجاً وبعضها مجتمعاً على شكل بديع فيبصر من خلالها التمتع مياه فسقية الأسود المتدفقة).

ولا تمت أسود تلك الفسقية إلى أي حيوان بوجه حقيقي، فهي ناقصة الشكل نقصاً قصده المثالون الذين أرادوا بها نوعاً من الزينة.  
ويكاد زائرو الحمراء لا يصدقون، أول وهلة، أن زخارف جدرانها منقوشة على الجص.

وقصّ جميع رجال الفنّ الذين زاروا قصر الحمراء العجيب، والألم ملء قلوبهم، ما لا يكاد العقل يصدّقه من أنباء التخريب الفظيع الذي أحدثه الأسبان فيه، فقد هدم شارلكن قسماً مهماً منه ليُنشئ في مكانه بناءً ثقيلاً وعدّته جميع الحكومات الأسبانية مجموعة من الخرائب القديمة التي لا تتفع لغير الاستفادة من موادّها، قال مسيو دفليه في كتابه عن أسبانيا:

(لقد بيعت ألواح الميناء التي كانت تزيّن رداه الحمراء منذ بضع سنين لصنع الملاط، وبيع باب مسجدّها البرونزي كنحاس عتيق، وحُرقت منها أبواب ردهة بني سراج الخشبية الأنيقة كما يُحرق الحطب، ثم اتُّخذ من رداها الجميلة سجون للمجرمين ومخازن للميرة بعد أن بيع ما أمكن نزعها منها).  
وأراد الأسبان تطهير جدران الحمراء المزينة بالنقوش العربية الجميلة، فكسوها طبقة كثيفة من الكلس.

وأما مدينة غرناطة فلا أنصح أحداً بأن يزورها بعد أن وصفها شعراء العرب بأنها أنضّر مدينة تنالها أشعة الشمس وبأنّها دمشق الأندلس.

ولا أقدر أن أصف الحال التي كانت عليها غرناطة فيما مضى، ولكن غرناطة الحديثة لم تعد سوى قرية كبيرة كنيية قذرة ليس فيها ما يجدر ذكره غير كندرائيتها الفخمة وحمرائها فضلاً عن أنها قائمة على مكان يُعدّ من أجمل أمكنة العالم، ولم تُبن بيوتها الحديثة على طراز معروف، وأمّعت في البحث عن زخارفها التي قصّ أدباء معاصرون مشهورون علينا خبرها فلم أجد لها أثراً.

حقاً لم تعد غرناطة الجديدة سوى مدينة ميّنة، ويُعرف أهلها بأنهم من الجهلة التّقلّاء البعيدين من القرى.

أكتفي بذكر ما تقدّم من مباني المسلمين، فإذا أضفنا إليه قصر شقوبية وبعض

الأبنية التي سنتكلم عنها في الفصل الذي خصصناه للبحث في تأثير المسلمين في أوروبا كانت لدينا صورة كافية للآثار الإسلامية الماثلة الآن في أسبانيا والتي هي بقايا عصر زاهر، والتي تكفي وحدها للدلالة على عظمة المسلمين ولو لم ينته إلينا شيء من علومهم وآدابهم.

### المسلمون في صقلية وإيطاليا

تدلنا دراسة تاريخ المسلمين في مختلف الأقطار التي دخلوها على أن لغزواتهم مناحي مختلفة، أي تدلنا على أنهم إما أن يكونوا قد أغاروا عليها ليستقرّوا بها نهائياً وإما أن يكونوا قد اكتفوا بغزوهم الخاطف لها، فأما في الحالة الأولى فقد كان من سياستهم الثابتة أن يكونوا على وئام مع الأهليين المغلوبين وأن يحترموا دينهم وشرائعهم وأن يكتفوا بأخذ جزية طفيفة منهم كما صنعوا في سورية ومصر وأسبانيا، وذلك خلافاً لعادة جميع الفاتحين في زمانهم، وأما في الحالة الثانية فقد ساروا على سياسة كل فاتح، فعدّوا البلاد التي أغاروا عليها كإيطاليا، وفرنسا على الخصوص، من الفرائس ونهبوا بسرعة ما وصلت إليه أيديهم منها وخرّبوا فيها ما لم يقدروا على حمله غير مبالين بسكانها.

وسار العرب على ذينك النجدين في صقلية، فيما أن عدد من أغار منهم على صقلية وعلى قطعة من إيطاليا كان قليلاً وقفوا عند حدّ الغزو الموقت وما ينشأ عنه عادةً من التخريب والنهب وقتل من يقاوم من الأهليين ثم العودة السريعة، ولمّا تكررت غزواتهم لتلك البلاد وأصابهم فيها من النجاح والتوفيق ما أصابهم رأوا أن يستقرّوا بها وأن يُحسنوا سياسة أهلها، ولما رسخت أقدامهم فيها كفّوا عن عادة نهبها وأنعموا عليها بنعم الحضارة، وكان لهم فيها مثل ما كان لهم في أسبانيا من الأثر النافع البالغ.

ويمكننا ببيان هذه الفروق الأساسية في سياسة المسلمين إدراك تاريخ المسلمين في مختلف الأقطار التي استولوا عليها وإيضاح علّة اختلاف سياسة المسلمين أنفسهم في

## البلدان المتجاورة.

كانت جزيرة صقلية من أعمال حكومة بيزنطة، وكانت حكومة بيزنطة ترسل إليها حكاماً ليمارسوا السلطة فيها، ومما حدث أن عهد إلى أمير البحر أوفيمبوس (فيمي) في الدفاع عنها، وأن علم أوفيمبوس أن قيصر بيزنطة أمر بقتله، وأن قتل أوفيمبوس حاكم صقلية ونصب نفسه أميراً عليها، وأن ثار أهلها عليه ففرّ إلى أفريقيا طالباً حماية المسلمين، وأن عاد إلى صقلية مع جيش من المسلمين لم يلبث أن سار على حساب نفسه، فأتى فتح صقلية بدخوله بلرم بعد وقائع دامت بضع سنين (212هـ - 217هـ).

ولم يقتصر المسلمون بمقاتلتهم الروم، على غزو صقلية، فقد استولوا على جنوب إيطاليا أيضاً، وبلغوا في تقدّمهم ضواحي روما، ولم يرجعوا عنها إلا بعد أن وعدهم البابا يوحنا الثامن بدفع جزية إليهم، واستولى المسلمون على مدينة برنديزي الواقعة على شاطئ البحر الأدرياتي ومدينة تارانت وأغاروا على دوكية بنيفنت، وصاروا سادة البحر المطلقين بفتحهم صقلية وأهمّ جزر إيطاليا وقورسقة وقندية (الخدق) ومالطة وجميع جزر البحر المتوسط، ولم يسع البندقية إزاء ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم لزمن طويل.

والنورمان هم الذين قضوا على سلطان المسلمين السياسي في صقلية في القرن الحادي عشر من الميلاد، وداوم المسلمون بعد زوال سيادتهم على القيام برسالتهم الثقافية فيها وقت كبير، وذلك أن ملوك النورمان، إذ كانوا من الذكاء ما يستطيعون أن يدركوا به تفوق المسلمين العظيم استندوا إلى المسلمين فظلّ نفوذ أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في أيّامهم بالغاً.

وكان الانقسام يأكل المسلمين، وكان ما بين العرب والبربر من المنافسة يقودهما إلى الهلاك في صقلية كما كان يقودهما إليه في أسبانيا، وكانت صقلية في ذلك الزمن أي في سنة 1061م، مجزأة إلى الإمارات الخمس: بلرم ومسيّنة وقطانية وأطرابنش وجرجنتة، وأطلق المؤرخون لقب ملك على أمير بلرم، ولكن هذا الملك كان يقتتل هو والأمراء المسلمون الآخرون مع استيلاء النورمان على نصف جزيرة



### صقلية.

وجعل انقسام المسلمين في صقلية فتح النورمان لها من الممكنات، وتمّ استيلاء النورمان عليها بدخولهم بلرم سنة 1072م، فأفل نجم المسلمين السياسيّ عن صقلية في تلك السنة وإن دام تأثيرهم الثقافيّ بعدها زمناً طويلاً بفضل دراية روجر وخلفائه.

وبدا روجر الأول، الذي نودي به أميراً على صقلية، منظماً قديراً كما بدا مقاتلاً شجاعاً، ويجب عدّه من أعظم رجال زمانه، ويستحقّ ابنه الذي خلفه مثل هذا المديح.

وكانت حضارة المسلمين زاهرةً في صقلية حين فتحها النورمان، وأدرك روجر وخلفاؤه أفضلية أتباع النبيّ (صلى الله عليه وآله) فانتحلوا نظمهم وشملوهم برعايتهم، وتمتعت صقلية برخاء دام إلى أن قبض ملوك من السواب على زمامها في سنة 1194م فأجلّوا المسلمين عنها.

وروى مؤرخو العرب أن عدد المسلمين في صقلية أصبح كثيراً في سنة 1184م، أي بعد قرن من ذلك الفتح، وأنه كان لهم في بلرم أحياء واسعة ومساجد كثيرة وأئمة وقاض للفصل في خصوماتهم، وازدهر بلاط ملوك النورمان في صقلية بفضل المسلمين، وبالغ أبو الفداء في تقديره فشبهه ببلاط الخلفاء في بغداد وببلاط الخلفاء في القاهرة.

### حضارة المسلمين في صقلية

إن حضارة المسلمين كانت في صقلية على شيء من النقص وإن لم تكن مثل ما كانت عليه في مصر وأسبانيا، وإن صقلية كانت حين جلاء المسلمين عنها أرقى ثقافةً وصناعةً واجتماعياً منها حين دخلوها، ونحن إذا علمنا أن قيمة تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى من ناحية الحضارة تقدّر بمقدار نهوضها بها وإصلاحها لها رأينا أنه كان للمسلمين تأثير عظيم في صقلية.

فقسّم العرب صقلية إلى ثلاث ولايات بعد أن كانت مقسومةً، منذ زمن القرطاجيين إلى الولايتين: بلرم وسرقوسة، فكان تقسيم العرب لها إلى ثلاث ولايات أكثر ملائمة لجغرافيتها، وكان على رأس كلّ واحدة من هذه الولايات الثلاث وال، وكانت كلّ ولاية مقسّمة إلى عدّة أعمال، وكان يقوم بشؤون كلّ واحد من هذه الأعمال قائد تابع للوالي، وكان يقيم ببلرم مفت، وكان يقيم بكلّ ناحية قاض ومسجل، وكان في كلّ مدينة جاب، وكان يُشرف على إدارة أمور المال والمحاسبة ديوان كبير.

وترك لنصارى صقلية كلّ ما لا يمسّ النظام العامّ، فكان للنصارى كما في زمن الروم، قوانينهم المدنية والدينية وحكام منهم للفصل في خصوماتهم وجباية الجزية السنوية التي فرضها المسلمون عليهم، وهي 48 ديناراً عن كلّ غنيّ، و24 ديناراً عن كلّ موسر، و12 ديناراً عن كلّ من يكسب عيشه بنفسه، وكانت هذه الجزية التي هي دون ما كان يأخذه الروم، لا تؤخذ من رجال الدين والنساء والأولاد. وجعل المسلمون كلّ ما له علاقة بالحقوق المدنية، كالتملك والإرث وما إليهما، ملائماً لعادات صقلية.

وسمح المسلمون في أيام سلطانهم للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وحرّيتهم الدينية.

ولم تكد أقدام المسلمين ترسخ في صقلية حتى أقبلوا على الزراعة والصناعة، فانتشلوها بسرعة من الانحطاط الذي كانتا فيه، وأدخلوا إلى صقلية زراعة القطن وقصب السكر والدردار (32) والزيتون، وحفروا فيها الترع والقنوات التي لا تزال باقية، وأنشأوا فيها المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم.

وتقدّمت الصناعة في صقلية بفضل المسلمين، واستغلّ عرب صقلية ثروتها الطبيعية واستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت والرخام والغرانيت، الخ. بأساليب فنية، وأدخلوا إليها صناعة الحرير، ومما يرى في نور نبرغ رداء من

32 - الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفلى.

الحرير كان يلبسه ملوك صقلية مطرزاً بكتابات كوفية مع تاريخ سنة 520هـ (1133م)، ويحمل كل شيء على القول بانتشار فن صباغة المنسوجات في أوربا من صقلية.

وانتعشت التجارة واتسع نطاقها أيام المسلمين بعد أن كانت صفراً تقريباً قبلهم. ولم يبق من المباني الإسلامية في صقلية سوى عدد قليل، وأشهر هذه المباني قصر العزيزة وقصر القبة القائمان بالقرب من بلرم والذان ثبت بهما أنه لم يكن من المبالغة ما رواه المؤرخون عن فخامة مباني المسلمين في صقلية، فعن هذه المباني المزيّنة بالرخام الثمين والفسيفساء الزاهرة والمحاطة بأجمل الرياض تكلم الراهب (ثيودوز) والعالم الجغرافي الإدريسي مع الإعجاب (33).

وتفسر إمامة المسلمين في الفنون والصناعات والعلوم سبب حماية ملوك النورمان لهم، وكان الرهبان يعجبون بحق المسلمين وإن كانوا يعززون اكتشافاتهم إلى السحر، وإنني أنقل العبارة الغربية الآتية التي وردت في كتاب تاريخي لاتيني، وذلك من بين العبارات الطريفة الكثيرة التي قيلت في المسلمين، وذلك للدلالة على رأي أعداء المسلمين في المسلمين، قال المؤرخ:

اكتشف الكونت روبرت ويسكارد في إحدى غزواته تمثالاً على عمود رخامي متوّج بإطار من نحاس منقورة فيه هذه الكلمة: (سأكون عند طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو صاحباً لتاج من ذهب)، فلم يستطع أحد أن يدرك مغزاها، ولكنه كان عند الكونت روبرت أسير من مسلمي صقلية عنده علم الجفر، كجميع أبناء هاجر فأخبر الكونت هذا بأن لديه مفتاح ذلك اللغز وبأنه يقول له معنى تلك الكلمة إذا أطلق، فوعده الكونت بذلك، فأشار ذلك المسلم عليه بأن يحفر حين طلوع الشمس من اليوم الأول من شهر مايو المحل الذي يدلّ عليه منتهى ظلّ ذلك التمثال، فصنع الكونت ما نصحه به فوجد كنزاً كبيراً).

33 - راجع أصل الكتاب، لمؤلفه غوستاف لوبون.

### غزو المسلمين لفرنسا

شنّ المسلمون غارات كثيرة على فرنسا بعد فتحهم أسبانيا ولم يقع ما يدل على أنهم كانوا يريدون الإقامة الجديّة بفرنسا، وفُسّر هذا بعدم ملائمة المناطق الباردة لهم.

والحقّ أن الرخاء كان يصبح حليف المسلمين في المناطق المعتدلة الجنوبية، وأن المسلمين استقروا بأقصى جنوب فرنسا زمناً طويلاً.

وكان يملك بلاد فرنسا، حين ظهر فيها المسلمون في القرن الثامن من الميلاد، أمراء يعرفون بالملوك الكسالي، وكانت تأكلها الفوضى الإقطاعية، وكانت مستعدّة لتكون غنيمة لغزاة المسلمين الذين استولوا على أكثر مدنها الجنوبية بسهولة، ودخل المسلمون قرقشونة ونيم وليون وماكون وأوتون، الخ، بالتتابع بعد أن فتحوا أربونة من إقليم لنغدوكة وحاصروا في سنة 721م مدينة طلوّشة التي كانت عاصمة أكيثانية على غير جدوى، وانتشر المسلمون في جميع وادي الرون وفي دوفينة وبورغونية. واستولى المسلمون بالتدريج على نصف فرنسا الحاضرة الذي يبدأ من ضفاف نهر اللوار وينتهي إلى مقاطعة فرنش كونته، ولم يقصد المسلمون الاستقرار بتلك البلاد، بل اكتفوا باحتلال بعض المراكز المهمّة لتكون قواعد يستطيعون أن يشنوا منها غارات جديدة على بعض البقاع حيث كانوا يأملون أن يجدوا ما يغنون.

وأهمّ تلك الغارات هي التي كانت بقيادة عبد الرحمن الغافقي فأوقفها شارل مارتل (قارلة) بالقرب من بواتيه سنة 732م.

جمع عبد الرحمن الغافقي جيشاً على شيء من الأهمية في أسبانيا وعبر نهر الغارون واستولى على بوردو (برديل) على الرغم من دفاع الأكيتان والفاسكون الذين كان يقودهم دوك أوديس، ثم توجه إلى بواتيه.

وقد أقاموا بفرنسا قرنين بعد ذلك، وقد سلّم حاكم مرسيلية مقاطعة البروفنس إليهم في سنة 737م، واستولوا على الألر ودخلوا مقاطعة سان ترويز في سنة 889م، ودامت إقامتهم بمقاطعة البروفنس إلى نهاية القرن العاشر من الميلاد، وأوغلوا في

مقاطعة الفالة وسويسرة سنة 935م، وروى بعض المؤرخين أنهم بلغوا مدينة ميس. ويرى المؤرخون الذين يجسمون قيمة انتصار شارل مارتل على المسلمين بالقرب من بواتيه أنه لولا هذا الانتصار لاستمرّ المسلمون على غزواتهم واستولوا على أوربا، ثم يسألون مذعورين عن مصير الشعوب النصرانية لو خفقت فوقها راية النبي (صلى الله عليه وآله).

والجواب عن ذلك هو أن النصر لو تمّ للمسلمين لأصاب أوربا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب أسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي (صلى الله عليه وآله)، وما كان ليحدث في أوربا التي تكون قد هُذبت، ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة سان بارتلمي ومظالم محاكم التفتيش وكلّ ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضرّجت أوربا بالدماء عدّة قرون.

إن التمدن اللامع كان حلّ بالبلاد التي خضعت لأتباع الرسول (صلى الله عليه وآله) محلّ الهمجية، وأن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدم لم يكن قوياً في أمة مثل قوته في المسلمين.

انتهينا من تاريخ المسلمين في مختلف الأقطار التي دانت للإسلام، وأنّ كلّ بلد خفقت فيه راية النبي (صلى الله عليه وآله) تحولّ بسرعة فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أيّما ازدهار.

## الفصل السادس

### صراع النصرانية والإسلام

#### الحروب الصليبية

#### منشأ الحروب الصليبية

كان سلطان العرب السياسي في أواخر القرن الحادي عشر من الميلاد، أي في الدور الأول من الحروب الصليبية، في طور الانحطاط، وإن لم يذو نفوذ اسمهم في العالم، فقد كانت أفريقيا وأسبانيا قبضتهم، ولم يتقدم بعد الزمن الذي كانوا فيه سادة

البحر المتوسط وسادة جزء من فرنسا وملوكاً لصقلية، والذي أوغلوا فيه حتى روما فأكروهوا البابا على دفع الجزية إليهم، ولم يصل قياصرة الرومان في إبان مجدهم إلى ما وصل إليه اسم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من إلقاء الرعب في نفوس برابرة أوربا، فهجوم أوربا النصرانية على الإسلام الذي كانت فرائص العالم ترتجف خوفاً منه منذ خمسة قرون، وذلك في عقر داره، من الأعمال العظيمة التي كانت تتطلب حماسة دينية بالغة واعتماداً كبيراً على الربّ وجيشاً مؤلفاً من مليون جندي.

وكلُّ يعلم كيف أجاب العالم النصراني دعوة ذلك المجذوب، وكيف انقضت أمم على الشرق، وكيف أن سوق تلك الجيوش الهائلة لم يؤدّ إلى غير نصر وهمي، وكيف فلتت عزيمة مجاهدي النصارى الذين لم ينقطع سيلهم مدة قرنين من أجل فتح القدس والمحافظة عليها أمام هلال الإسلام.

واصطلح الناس على تسمية ذلك الصراع بين النصرانية والإسلام بالحروب الصليبية، وكان لتلك الحروب نتائج مهمة في تاريخ حضارة أوربا العام.

واشتاط بطرس الناسك - وهو مسيحي زار فلسطين وحواليها - غيظاً من سوء ما عومل به في فلسطين، وغاص بطرس الناسك في بحر من الأحلام فرأى أنه مرسل لدعوة أوربا إلى إنقاذ الأرض المقدسة.

وملكت هذه الأوهام مشاعره فتوجّه إلى روما ليستعين بالبابا، فأذن له البابا أوربان الثاني في دعوة النصارى إلى إنقاذ الأماكن المقدسة، فصار يجوب بلاد إيطاليا وفرنسا، ويلقي الخطب النارية ممزوجة بالبكاء والعيول وصبّ اللعنات على الكافرين، وبوعد الربّ للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة، وتؤثر فصاحته التمثيلية الخيالية في قلوب الجموع، ويعدّه الناس نبياً في كل مكان.

ولم تكن الجموع التي ألهبها بطرس الناسك لتستطيع عمل شيء وحدها وإنما حدث ما حفز السنيورات الذين كانوا سادة للجموع إلى دعم تلك الحركة، وذلك أن قيصر الروم، اليكس كومنين، الذي كانت دولته تخسر كل يوم قطعة من أملاكها، استغاث بالبابا وملوك أوربا حينما حاصر الترك القسطنطينية، فأقام ذلك العالم

النصراني وأقعدته بالإضافة إلى مواعظ بطرس الناسك. ورأى البابا أن يشجع تلك الحركة، فعقد في إيطاليا مؤتمراً دينياً لم يسفر عن نتيجة، ثم عقد في سنة 1095م مؤتمراً ثانياً في كليرمون باوفرن، وحضر بطرس الناسك هذا المؤتمر الأخير، وتحالف المؤتمرون، تلبيةً لدعوته الصارمة وترديد الجموع الهائجة لكلمة: (الرب يريد ذلك!)، على الزحف إلى فلسطين لإنقاذ قبر الرب ملصقين الصليبان على أكتافهم وأجمع المؤتمرون على أن يبدأ بالزحف في عيد انتقال العذراء من السنة القادمة حتى يجمع أولياء الأمور جيشاً كبيراً قادراً على القيام بذلك.

حقاً لقد أصاب القوم نوبة حادة من الجنون، فرغب السنيورات والعبيد والرهبان والنساء والأولاد وجميع الناس في الزحف، وأخذ كل امرئ يبيع ما يملك ليتجهز، واستعدّ من الرجال 130.000 مقاتل لغزو فلسطين حالاً.

وكانت تلك النوبة تزيد حدة كل يوم، وكان بطرس الناسك والفارس الفقير غوثيه على رأس أهمّ العصابات الزاحفة إلى الشرق، وأكرمت هذه العصابات في البلدان الأوربية التي كانت تمرّ منها في بدء الأمر، ولكنها لم تكد تصل إلى بلغارية حتى التقت بأناس من ضعاف الإيمان أبوا أن يضيقوهم مجاناً، وساء هذا الرفض الصليبيين، ولم يحجموا عن اغتصاب ما منعوه وعن نهب قرى تلك البلاد وذبح أهليها، ولم يصبر الأهليون على ذلك فأخذوا ينتقمون ويقتلون فريقاً كبيراً منهم أو يغرقونه، وجدّ الصليبيون في طلب النجاة بسرعة، وبلغوا القسطنطينية ناقصي العدد، ووجدوا فيها عصابات من التوتون، والطلاينة والغسكون والغول والبروفنسيين كانت قد سبقتهم إليها، وهنالك انضمّ هؤلاء إلى أولئك وأخذوا يقتلون وينهبون ويأتون ما يفوق الوصف من الأعمال الوحشية، ويعزم البيزنطيون على التخلص منهم، وينقلونهم بالسفن إلى ما وراء البسفور.

وبلغ عدد من سبق من الصليبيين إلى آسيا الصغرى على ذلك الوجه مائة ألف، واقتترف هؤلاء من الجرائم نحو المسلمين والنصارى ما لا يصدر عن غير المجانين من الأعمال الوحشية، وكان من أحبّ ضروب اللهو إليهم قتل من يلاقون من

الأطفال وتقطيعهم إرباً إرباً وشيهم كما روت (آن كومنين) بنت قيصر الروم. ولم يلبث جيش الصليبيين الأول المؤلف من مئات الألوف أن أُبِيدَ، وإنما كانت تأتي من خلفه فيالق منظّمة تامّة العدّة مؤلّفة من سبعمئة ألف مقاتل بقيادة أقوى السنيورات، أي كان يأتي من الفيالق ما لم يسبق للمسلمين أن جمعوا جيشاً لجباً مثله.

وكان همّ الصليبيين مصروفاً إلى الاغتناء، ولم يحسنوا سياسة الأهليين، وخرّبوا البلاد، وكشّر الجوع لهم عن أنيابه، واضطرب حبل نظامهم، وتفرقوا وتقاتل من قادتهم القائدان المهمّان: تانكريد وبودوين، ثم انفصل بودوين عن رفاقه هو وفيلقه كي يسلب ويحارب لحساب نفسه.

وفتكت الأمراض والمجاعة بالصليبيين فتكاً ذريعاً، وقنط بطرس الناسك من النصر وفرّ من المعسكر، وأعيد إليه فاستقبله تانكريد بضرب العصي. ودبّت الفوضى في مفاصل الجيش الصليبي، وشاع التجسّس فيه، وأمر بوهميوند بتقطيع الجواسيس وطهيمهم وإطعامهم للجنود الجائعين، فتدابير كهذه تخبرنا عن حال جيش اضطّرّ إلى اتّخاذها.

ويدلّ سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشدّ الوحوش حماقة، فقد كانوا لا يفرّقون بين الحلفاء والأعداء والأهليين والعزل والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال، وقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدى.

ونرى في كلّ صفحة من الكتب التي ألّفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين على توحّش الصليبيين، ويكفي لبيان ذلك أن ننقل الخبر الآتي الذي رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين في مدينة مارات للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية، وذلك بالإضافة إلى ما حدث حين الاستيلاء على القدس، قال المؤرخ الراهب النقيّ روبرت:

(وكان قوماً يجوبون الشوارع والبيادين وسطوح البيت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبوءات التي خطفت صغارها، وكانوا يذبّحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً



كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، فيا للعجب ويا للغرابة أن تُذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلّحة بأَمْضى سلاح من غير أن تقاوم! وكان قومنا يقبضون على كلّ شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية، فيا للشره وحبّ الذهب! وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجنث، فيا لتلك الشعوب العمي المعدّة للقتل! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً، ثم أحضر بوهموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يباعوا فيها).

وكان عدد الصليبيين مليون شخص حينما خرجوا من أوربا، فأخذت المجاعة والأوبئة والدعارة والوقائع والمنازعات تُبِيد هذا الجيش العظيم الذي كان يمكنه فتح العالم لو أُلّف من أناس آخرين، ولم يبق منه عند بلوغه القدس سوى عشرين ألفاً. قال كاهن مدينة لوبري، ريموند داجيل:

حدث ما هو عجيب بين العرب! عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها، فقد قُطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقلّ ما يمكن أن يصيبهم! وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرونّ إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرّق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس المسلمين وأيديهم وأرجلهم، فلا يمرّ المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا...).

وروى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر، فعرض الوصف اللطيف الآتي:

(لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة).

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمراً جمعوا فيه على إبادة

جميع سكان القدس، من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً فأفنواهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً.

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبةً، فأنهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعريضة، واغتاز مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الإغضاء والتساهل، فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين، وشبههم بודان الذي كان رئيس أساقفة دول، بالفروس التي تتمرغ في الأقدار.

وهاج العالم الإسلامي من استيلاء الصليبيين على القدس كما هاج العالم النصراني، ولاح، لوقت قصير، تضعض نفوذ أتباع النبي (صلى الله عليه وآله) الذي تأصل منذ خمسة قرون، وتتاسى المسلمون جميع عوامل الانقسام الذي كان يفت في عضدهم مع ما أحدثه ذلك الاستيلاء من الذعر الكبير فيهم، وأغضى سلطان القاهرة عن منافسته لخليفة بغداد فتبادلا السفراء للبحث في عمل ما يجب لتلافي تلك المصيبة.

أجل، لقد خسر النصارى مليون رجل، وخرب بعض أوربا في سبي فتح القدس، وكان النصارى يرجون أن يحتفظوا بثمرة هذا الفتح العزيز، غير أن أملهم خاب، فلم يلبث المسلمون أن استردوا القدس، وعادت القدس إلى حظيرة الإسلام إلى الأبد. ولم ينشأ عن حكم الإفرنج لها سوى خرابها وإفكارها، وكان من نتائج هذا الحكم أن عرفت البلاد نظام الإقطاع كما في أوربا وأن قُسمت إلى الإمارات الإقطاعية المتقاتلة على الدوام، طرابلس وعسقلان ويافا، الخ، ولم يلبث طغاتها الأصاغر الذين لم يكونوا ليفكروا في غير الاغتناء أن خربوها بعد أن كانت زاهرة في أيام الحكم الإسلامي الرشيد، وإليك ما قاله أسقف عكا الصليبي جاك دوفيتري عن أنباء الصليبيين الأولين، وذلك في تاريخه عن القدس:

(خرج من الصليبيين الأولين الأتقياء المتدينين جيل من الفجرة الأشرار

الفاستدين المنحلّين الفاسقين كما يخرج الثقل من السّلاف (34) والدّردي (35) من الزيت والشيلم (36) من البرّ والصدأ من القلّز (37). وكان هؤلاء الأبناء يختصمون ويقتتلون لأنّفه الأسباب، حتّى إن بعضهم كان يستعين على بعض بأعداء النصارى في الغالب... وكان لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمُهرّجين والرهبان الدّعار والراهبات العواهر).

ولم يكن غليوم الصوري أقلّ صراحةً من ذلك، فقد قال بعد أن وصم أبناء الصليبيين بأنهم من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين: (تلك هي رذائلهم الوحشية التي لو أراد كاتب أن يصفها لخرج من طور المؤرّخ ليدخل في طور القادح الهاجي).

وبينما كان النصارى يخربون القدس كان المسلمون يستردّون بالتدريج ما خسروه، وقد أورث تقدمهم في سورية واستيلاؤهم على الرّها (اورفة) هلعاً في قلوب النصارى بفلسطين، فاستغاث النصارى بأوربا.

ونظمت حملة صليبية ثانية لإمداد أولئك، ونجح سان برنارد في إيقاد نار التعصّب الديني، فقد توجه ملك فرنسا لويس السابع على رأس الحملة الصليبية الجديدة إلى فلسطين، وتبعه الملك الألماني كونارد الثالث، غير أن جيش لويس السابع الذي كان عدده مائة ألف مقاتل لم يكد يصل إلى آسيا الصغرى حتّى أُبِيد عن بكرة أبيه، ففرّ لويس السابع بطريق البحر ليذهب إلى أنطاكية ويتوجّه منها إلى القدس كحاجّ عادي، وما كان جيش كونارد الثالث أوفر حظاً من جيش لويس السابع.

ولم يبد سلوك الصليبيين في هذه الحملة الثانية أحسن من سلوك رجال الحملة

34 — السلاف: ما سال وتحلب قبل العصر.

35 — الدردى من الزيت ونحوه: الكدر الراسب في أسفله.

36 — الشيلم: الزّوان يكون بين الحنطة.

37 — القلّز: النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

الصليبية الأولى، قال الكاهن أنكتيل في تاريخه:

(قلّما كان يوجد صليبي يسير بوحى ديني، فلم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشية وضرباً من قطع الطرق وفصائح مزرية إلا اقتترفوها). ومن فضائحهم أنه كان أول ما بدأ به ريكاردس هو قتله أمام معسكر المسلمين، ثلاثة آلاف أسير مسلم سلّموا أنفسهم إليه بعد ما قطع لهم عهداً بحقن دمائهم، ثم أطلق لنفسه العنان في اقتراف أعمال القتل والسلب.

وظلت القدس وفلسطين تقريباً قبضة المسلمين على الرغم من الحملات الصليبية الخمس التي جُرّدت بعد الحملة الصليبية الأولى، ثم عزم ملك فرنسا سان لويس على العودة إلى الجهاد فجرّد حملة صليبية سابعة في سنة 1248م، وقد غادر ايغمورت على رأس خمسين ألف مقاتل متوجّهاً إلى مصر، وقد احتلّ دمياط، وزحف إلى القاهرة التي كسر جيشه قبل أن يبلغها، ووقع أسيراً، وافتدى نفسه، وذهب إلى سورية، وأقام بها سنتين من غير أن يظفر بطائل، ثم رجع إلى فرنسا قبل أن يرى القدس.

ولم تنتن عزيمة سان لويس مع هذا الانكسار، فقد جهّز حملة صليبية جديدة بعد ستّ عشرة سنة، وقد غادر ايغمورت في الرابع من يولييه سنة 1270م، على رأس جيش مؤلّف من ثلاثين ألفاً من المشاة وستة آلاف من الفرسان، وقد توجه إلى تونس طمعاً في حمل أميرها على انتحال النصرانية فأصابه الطاعون حينما كان محاصراً لها، فمات في 25 أغسطس سنة 1270م.

وكانت تلك الحملة الثامنة آخر الحملات الصليبية، فبها خُتِمت تلك المغازي الكبيرة إلى الأبد وبقي المشرق خاضعاً لأتباع النبي العربي (صلى الله عليه وآله). حقاً إنّ مبادئ الحقوق النظرية المدوّنة في الكتب لم تكن دليلَ أمة في أيّ زمن وإن المبادئ التي احترمتها الأمم هي التي أيّدتها قوّة السلاح كما أثبتته التاريخ، وإن البابوات لم يسيروا على غير سنن الفاتحين في الماضي والحاضر، حينما حرّضوا النصارى على الحروب الصليبية الطاحنة المنافية لأبسط قواعد الإنصاف من الناحية النظرية.

وإذا نظرنا إلى هدف الحروب الصليبية القريب الذي هو فتح فلسطين رأيناها لم تُسفر عن أية نتيجة مع ما خسرت أوروبا في قرنين من المال والرجال، فقد بقي المسلمون سادة لتلك الأماكن التي أراد النصارى أن يستولوا عليها بأي ثمن كان. ولكننا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التي أسفرت عنها الحروب الصليبية تجلّت لنا أهمية تلك النتائج التي كان بعضها نافعاً وبعضها ضاراً، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مدّة قرنين من أقوى العوامل على نموّ الحضارة في أوروبا، وتكون الحروب الصليبية قد أدّت بهذا إلى نتائج غير التي نشدتها.

وإذا أراد المرء تصوّر تأثير الشرق في الغرب، وجب عليه أن يتمثّل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبهما المتقاتلة، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل المسلمين، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من الهمجية، وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا في سلوكهم وحوشاً ضارية وأنهم كانوا يتهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على السواء، وأنهم خربوا في القسطنطينية ما لا يقدر بثمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والرومان.

ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يُفيد الشرق، ولم ينتفع الشرق منهم بشيء في الحقيقة، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها في قلوبهم الازدراء للغربيين على مرّ الأجيال، ولم ينشأ عن جهالة الصليبيين وغلظتهم وتوحّشهم وسوء نيّتهم غير حمل الشرقيين أسود الأفكار عن نصارى أوروبا وعن النصرانية، وغير إيجاد هوة عميقة لا يمكن سدّها بين أمم الشرق وأمم الغرب، وما إلى ذلك من النتائج الضارة التي أشرنا إليها آنفاً.

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح في العالم عدّة قرون، وأن صبغته بما لم تعرفه ديانة، خلا اليهودية، بصبغة القسوة والجور، أجل، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح، ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حدّ الجلف والطغيان، وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغاً من الحمى الشديدة في الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقاسي أثره إلى زماننا تقريباً، فلم يلبث رجال الدين الذين تعودوا سفك الدماء أن صاروا ينشرون المعتقد ويبيدون

أصحاب البدع على الطريقة التي كانوا يبيدون بها الكافرين، ويرون أنه يجب إخماد أقلّ انحراف بأفزع تعذيب، ومن نتائج ما نما في الحروب الصليبية من روح عدم التسامح المشؤومة ما حدث من ذبح اليهود والأليجوا وكلّ ذي بدعة ومن إنشاء محاكم التفتيش ومن الحروب الدينية ومن الحروب الوحشية التي ضربت أوربا بالدماء زمناً طويلاً.

ولنبحث الآن في نتائج الحروب الصليبية النافعة بعد أن ذكرنا نتائجها الضارة، فإن تلك الحروب صارت سبب تمدّن الغرب.

فإنّ تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيماً جداً بفعل الحروب الصليبية وأنّ ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشدّ منه في العلوم والآداب، وإذا ما نظرنا إلى تقدّم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ عن تحاكّ الصليبيين والشرقيين من النموّ في الفنون والصناعة تجلّى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحّش وأعدّوا النفوس إلى التقدّم بفضل علوم المسلمين وآدابهم التي أخذت جامعات أوربا تعولّ عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم.

### طبائع المسلمين ونظمهم

يجب أن يُعترف بأن المسلمين أقلّ تحوّلاً من الأوروبيين بين قرن وقرن، ولم ينشأ استقرارهم العتيد عن حضارتهم فقط، بل نشأ أيضاً عن كون القرآن دستور المسلمين الديني والسياسي والمدني على الخصوص، وعن أن ثبات أيّ أمر من هذه الأمور الثلاثة المتماسكة كان يوجب ثبات الأمرين الآخرين بحكم الضرورة، وهكذا لم يلبث المسلمون أن رأوا أنفسهم مقيّدين بسلسلة من التقاليد والعادات التي تأصلت بحكم الوراثة، فأصبحت من الرسوخ بحيث لا تؤثر فيها الزعازع، وهكذا كادت طبائع أكثر المسلمين وعاداتهم تكون ثابتة لا تتبدّل منذ قرون، وهكذا أصبح من الممكن تمثّل حياتهم الماضية بدراسة حياتهم الحاضرة.

وأظهر ما يتّصف به المسلمون هو أدبهم الجمّ وحلمهم الكبير وتسامحهم العظيم

نحو الناس والأموال ودعتهم ووقارهم في جميع الأحوال واعتدالهم الكثير في الاحتياج، وقد منحهم إزعاجهم الهادئ لمقتضيات الحياة طمأنينة روحية قريبة من السعادة المنشودة على حين تورثنا أمانينا واحتياجاتنا المصنوعة قلقاً دائماً بعيداً من تلك السعادة.

وإليك ما قاله (الفيكونت فوغيه) عندما تكلم عن تزاور أفقر طبقات المسلمين: (لا يسعني سوى الإعجاب بما يسود اجتماعات أولئك القرويين الفقراء من الوقار والأدب، وما اعظم الفرق بين أتران أقوالهم ونبل أوضاعهم ولغط بني قومنا ووقاحتهم).

وأتيح لي (38) غير مرة أن أتصل بكثير من المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ففضيتُ العجب في كل مرة من الوقار والترحاب اللذين كان يستقبلني بهما أناس لا تعلق طبقتهم الاجتماعية طبقة فلاحي أوربا، لا فرق في ذلك بين أن يكون رب البيت فقيراً أو غنياً، وذلك أن الواحد منهم يتقدم نحوك ليحييك على الطريقة الشرقية، أي بوضع يده على صدره وجبينه، وليدعوك إلى الجلوس على متكأ في صدر البيت المقابل للباب، ثم يعرض عليك سيجارة أو نارجيلة للتدخين وقهوة للشرب، وينتظر منك بأدب أن توضح له سبب زيارتك.

ويُعامل الشرقيون الكلاب وجميع الحيوانات برفق عظيم، ولا ترى مسلماً يؤذي حيواناً، وإيذاء الحيوان من عادة سائقي العربات في أوربا، وليس من الضروري إذن أن يؤلف المسلمون جمعيات رفق بالحيوان.

والحق أن الشرق جنّة الحيوانات، وفي الشرق تراعى الكلاب والهررة والطيور، الخ. وتُحلق الطيور في المساجد وتوكر في أطنافها مطمئنة، وتأوي الكراكي إلى الحقول من غير أن تؤذي، ولا تجد صبيّاً يمسّ وكناً، وقد قيل لي في القاهرة بصيغة التوكيد، وهذا يؤيد ما ذكره بعض المؤلفين، أن في القاهرة مسجداً تأتيه الهررة في ساعات معينة لتتناول طعامها وفق شروط أحد الواقفين منذ زمن طويل.

وجزئيات كتلك تدلّ على طبائع الأمّة، وتدلّ على درجة افتقار الأوروبيين إلى تعلّم الشيء الكثير من حلم المسلمين وأنسهم.

### الرقّ في الشرق

تثير كلمة (الرقّ) في نفس الأوروبي، القارئ للقصص الأمريكية منذ ثلاثين سنة، صورة أناس يائسين مقرّنين في الأصفاد، مقودين بالسياط رديئي الغذاء مقيمين بمظلم المحابس.

ولا أبحث هنا في صحّة صورة الرقّ هذه عند الأنغلو أمريكيين منذ بضع سنين، ولا في صحة تفكير صاحب رقيق في إيذاء مال غال كالزنجي والقضاء عليه، وإنّما الذي أراه صدقاً هو أنّ الرقّ عند المسلمين غيره عند النصارى فيما مضى، وأنّ حال الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوربا، فالأرقاء في الشرق يؤلّفون جزءاً من الأسر، ويستطيعون الزواج ببنات سادتهم أحياناً كما رأينا ذلك سابقاً، ويقدرّون أن يتسلّموا أعلى الرتب، وفي الشرق لا يرون في الرقّ عاراً والرقيق فيه أكثر صلة بسيّده من صلة الأجير في بلادنا.

قال مسيو أبو:

(لا يكاد المسلمون ينظرون إلى الرقّ بعين الاحتقار، فأمّهات سلاطين آل عثمان، وهم زعماء الإسلام المحترمون، من الإماء، ولا يرون في ذلك ما يحطّ من قدرهم، وكانت أسر الممالك الذين ملكوا مصر زمناً طويلاً تلجأ - لتدوم - إلى شراء صغار الموالى من القفقاس وتتنبّاهم في سنّ البلوغ، وليس من القليل أن يرثي أمير مصري أحد صغار الأرقاء ويعلمه ويدربه ويزوجه ابنته ويفوض إليه إدارة شؤونه، وترى في القاهرة أكابر من الوزراء والقادة والقضاة اشترى الواحد منهم في شبابه بما لا يزيد على ألف وخمسمائة فرنك).

واعترف جميع السيّاح الذين درسوا الرقّ في الشرق درساً جدياً بأنّ الضجة المغرضة التي أحدثها حوله بعض الأوروبيين لا تقوم على أساس صحيح، وأحسن دليل يقال تأييداً لهذا هو أنّ، الموالى الذين يرغبون في التحرّر بمصر ينالونه بإبداء



رغبتهم فيه أمام أحد القضاة، وأنهم لا يلجأون إلى حقهم هذا، قال مسيو إبير مشيراً إلى ذلك: (يجب عدّ الرقيق في بلاد الإسلام مبخوتاً على قدر الإمكان). ومن السهل أن أكثر من اقتباس الشواهد على صحة ذلك، ولكنني أكتفي بذكر الأثر الذي أوجبه الرقّ في الشرق في نفوس المؤلفين الذين أُتيح لهم درسه في مصر حديثاً.

قال مسيو شارم:

(يبدو الرقّ في مصر أمراً لئناً هيناً نافعاً منتجاً، ويعدّ إلغاؤه فيها مصيبة حقيقية، ففي اليوم الذي لا يستطيع وحوش أفريقيا الوسطى أن يبيعوا فيه أسرى الحرب، ولا يرون فيه إطعامهم، ولا يحجمون عن أكلهم، فالرقّ وإن كان لطخة عار في جبين الإنسانية، أفضل من قتل الأسرى وأكل لحومهم، إذا ما نظر إليه من وجهة نظر هؤلاء الأسرى، وذلك على الرغم من رأي محبّي الإنسانية من الإنكليز الذين يقولون إنه أجدر بكرامة الزنوج أن يأكلهم أمثالهم من أن يسودهم أجنبي!).

وقال مدير مدرسة اللغات في القاهرة مسيو دوفوجاني:

(ترى الأرقاء الذين يستفيدون من الحرية الممنوحة لهم قليلين للغاية مع أنّ هذه الحرية تسمح لهم بأن يعيشوا كما يشاءون من غير إزعاج، فالأرقاء يُفضلون حال الرقّ السالم من الجور على حال القلق الذي يكون مصدر آلام ومتاعب لهم في الغالب، وترى الأرقاء في مصر أحسن حالاً مما كانوا عليه قبل استرقاقهم بدلاً من أن يكونوا من البائسين المناكيد، وبلغ الكثيرون منهم — ولاسيما البيض — أرقى المناصب في مصر، ويعد ابن الأمة في مصر مساوياً لابن الزوجة في الحقوق، وإذا كان ابن الأمة هذا بكر أبيه تمتّع بكلّ ما تمنحه البكرية من الامتيازات، ولم تكن من غير الأرقاء زُمرة الممالك التي ملكت مصر زمناً طويلاً، وفي أسواق النخاسة اشتري (علي بك) و(إبراهيم بك) و(مراد بك) الجبّار الذي هُزم في معركة الأهرام، وليس من النادر أن ترى اليوم قائداً أو موظفاً كبيراً في مصر لم يكن في شبابه غير رقيق، وليس من النادر أن ترى رجلاً في مصر كان سيده المصري قد تنبّه وأحسن تعليمه وزوجه ابنته).

وليست مصر القطر الوحيد الذي يُعامل فيه الأرقاء برفق عظيم، أي أنّ ما تراه في مصر ترى مثله في كلّ بلد خاضع للإسلام، وسمع ما قالته السيّدة الإنكليزية (بلنت) في كتاب رحلتها في بلاد نجد ذاكرة محادثتها لعربي:

(إنّ ممّا لم يستطع أن يفهمه ذلك العربيّ هو وجود نفع للإنكليز في تقييد تجارة الرقيق في كلّ مكان، ولما قلت له إنّ مصلحة الإنسانية اقتضت ذلك، أجابني: (إنّ تجارة الرقيق لا تتطوي على جور، ومن ذا الذي رأى إيذاء زنجي؟) والحقّ أننا لا نزعّم أننا رأينا ذلك، ومن الأمور المشهورة أن الأرقاء عند العرب يكونون من الأبناء المدلّين أكثر من أن يكونوا من الأجراء).

### الفصل السابع

#### نظم المسلمين

#### نُظُم المسلمين الاجتماعية

اقتصر هنا على بيان أهمّ ما جاء في القرآن من الأحكام الشرعية. اختلط شرع المسلمين المدنيّ بشرعهم الدينيّ اختلاطاً وثيقاً، وتألّف منهما علم قائم على تفسير القرآن.

وما كان القرآن ليذكر جميع ما يحدث في كلّ يوم، وهو لم يسطر غير القليل من ذلك، وكان الناس منذ البداية يرجعون مضطرينّ إلى النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) وخلفائه من بعده لحلّ المعضلات الشرعية اليومية، فتألّف مما روي من أحكامهم المجموعة منذ القرن الأول من الهجرة ما سُمّي بالسنة.

ثم ظهر بعد زمن قصير أن القرآن والحديث غير صريحين في جزئيات الأحكام، ورئيّ إتمامها بوضع دستور مدنيّ ودينيّ مشتقّ من تفسير القرآن، وقامت بذلك جماعة كبيرة من الأئمة في القرن الأول والقرن الثاني من الهجرة، منهم: أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل، وإلى هؤلاء تُنسب المذاهب الربعة التي يقتدي بها مختلف شعوب الإسلام (السنية)، فأما المذهب المالكي فاتّبع في أفريقيا، وأما المذهب الحنفي فاتّبع في مصر وجزيرة العرب مع عمل المحاكم المصرية بالمذهب الحنفي،

وأما المذهب الحنبلي فمهجور في أيامنا!

(وهناك مذهب آخر وهو المذهب الحق، يسمى بمذهب أهل البيت (عليهم السلام) والمذهب الجعفري، ويدين به الشيعة في كل البلاد، وهم يتبعون الأئمة الاثني عشر، الذين عيّنهم الرسول (صلى الله عليه وآله) خلفاء من بعده، أولهم الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وآخرهم الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف).

ثم صار لكل واحد من هذه المذاهب كثير من الشراح.

والعقوبات تستند إلى القرآن وتفسير القرآن أيضاً، أي تقوم على مبدأ القصاص كما قامت عليه شريعة موسى (عليه السلام)، ومبدأ القصاص هذا هو المبدأ الممكن في جميع الشرائع الفطرية كما قلنا.

ومن فوائد القصاص أنه يقلل حوادث القتل كثيراً، ومن محاذيره أنه (قد) يؤدي إلى استمرار أعمال الثأر زمناً طويلاً غالباً، ولذا رُئي أن تقوم الدية التي تدفع إلى أهل المقتول مقامه أحياناً، ولذا دام هذا النظام إلى أن جاء الوقت الذي صار المجتمع يقوم فيه بمعاقبة المذنب بدلاً من أن يقوم بها المعتدى عليه أو أسرته.

(وقد فوّض الإسلام حق إجراء القصاص إلى الحكومة الإسلامية)، ولكن هذا الطور الجزائي الأخير لا يكون في غير المجتمعات التي يقوم فيها نظام مركزي قوي.

ومن ثم ترى أنّ ما جاء في شريعة موسى u من حق القصاص القائل: إنّ العين بالعين والسنّ بالسنّ هو مع مبدأ الدية الذي جاء ملطفاً له، مبدأ الفقه الجزائي الأساسي في القرآن، ومع ذلك فقد أوصى القرآن بالعفو على أنه خير من الثأر، ونعدّ هذا تقدماً عظيماً ما عدّ الإنسان في الأدوار الفطرية عدم الانتقام عاراً، وإليك مبادئ القرآن الأساسية في الجرائم وما يقابلها من العقوبات:

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (39).  
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ

وَالْأُنْتَى بِالْأُنْتَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (40).

(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) (41).

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (42).

والمفسرون نصّوا على أحكام الدية، فإذا وقع القتل عمداً كان القصاص جزاء القاتل، ما لم يقبل أهل القتل الدية.

وأهل القاتل أو أفراد أسرته هم الذين يؤدّون الدية، وإذا كان القاتل مجهولاً دفعت من (بيت المال)، ومن هنا تبصر مقدار التضامن بين مسلمي الأسرة الواحدة.

وجرائم القتل والجرح وحدها هي التي يُمكن العوض منها كما جاء في القرآن وفي أكثر الشرائع القديمة، وأمّا العقوبات التي تُفرض على السارقين وقطّاع الطرق فمتنوّعة، فتقطع يد السارق اليمنى في المرة الأولى مثلاً، ثم تُقطع رجله اليسرى في المرّة الثانية، والحبس أو البتر أو القتل جزاء قطّاع الطرق، والرجم جزاء الزنا والزواني من الأزواج على أن يثبت الزنا بشهادة أربعة شهود أو بإقرار المذنب، والحدّ الذي يقام على شارب الخمر، أو الذي كان يقام عليه فيما مضى، ثمانون جلدة.

وأحكام الحقوق المدنيّة كثيرة للغاية في كتب الفقه، وما نذكره عن حقوق التملّك والميراث الخ، يكفي لتتوّر أقسامها المهمّة.

ليس في القرآن غير الإجمال لحقّ التملّك، ولكن المفسرين أحسنوا ترتيبه. وبالغ المسلمون في احترام حقّ التملّك، حتى ما كان منه خاصاً بالمغلوبين، ومن ذلك أنّ الأراضي التي أخذت من المغلوبين بالفتح أعيدت إليهم على أن يؤدّوا

40 — البقرة: 178.

41 — المائدة: 32.

42 — المائدة: 38.

خراجاً قلماً يزيد على خمس محصولاتها.

ويؤدي إحياء الأرض الموات عند المسلمين إلى حق التملك، فالمسلمون يرون أن إحياء الأرض الموات يتضمن منح الأرض قيمة، ومن ثم يتضمن حقاً لتملكها. وكلمة الأجنبي عند المسلمين لا تشتمل على غير الكافرين، أي ليس المسلمون أجانب في نظر بعضهم إلى بعض مهما اختلفت الشعوب التي ينتسبون إليها، ولا فرق في دار الإسلام بين الصيني المسلم والعربي المسلم في التمتع بجميع الحقوق، وبهذا تختلف الحقوق الإسلامية عن الحقوق الأوروبية اختلافاً سياسياً.

وتعدّ مبادئ المواريث التي نصّ عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف، ويمكن للقارئ أن يدرك هذا من الآيات التي أنقلها منه، ولم يُذكر في القرآن جميع الأحوال التي عالجها المفسرون فيما بعد وإن أُشير فيه بدرجة الكفاية إلى روحها العامة، ويظهر من مقابلي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنكليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات - اللاتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشروهنّ بالمعروف - حقوقاً في المواريث لا تجد مثلاً في قوانيننا.

جاء في القرآن: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً) (43)، (44).  
(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) (45) ولأبويه لكل واحد منهما السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ (46) فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ (47) فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ (48) مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا

43 - النساء: 7.

44 - الأولاد في فرنسا، ذكوراً كانوا أو إناثاً، يرثون جميع ما يتركه الوالدان.

45 - حصة البنت الإرثية في فرنسا مساوية لحصة الابن الإرثية.

46 - ولا يرث الأبوان شيئاً في فرنسا ما وجد للمورث أولاد أو ذرية آخرون، والأم في إنكلترا ترث كل شيء وتقاسمها زوجته التركة.

47 - الأصول في فرنسا متساوون في الميراث، ذكوراً كانوا أو إناثاً.

48 - حصة الأم في تركة الابن في فرنسا هي الربع إن كان له أخوة، ويقسم هؤلاء الإخوة بقية التركة،

تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ (49) إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ (50) إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (51).

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ (52) فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (53).

(وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ (54).

ونظام القضاء والمرافعات عند المسلمين بسيط للغاية، أي أنه يقوم بالقضاء قاض منفرد معيّن من قبل وليّ الأمر، ويحضر الخصوم أمام القاضي بدعوة، ويترافعون إليه مشافهةً، ويعرضون عليه ببيّناتهم التي قد تكون قائمة على الإقرار أو الشهادة أو

فإذا كان للمورث أبوان كان لكل منهما ربع التركة وكان نصفها للإخوة.

49 — لا يرث الأزواج في فرنسا إلا عند عدم وجود من لهم حق الميراث، ويأخذون في إنكلترا، بالعكس، جميع التركة.

50 — لا ترث الزوجات في فرنسا أزواجهن إلا عند عدم وجود من لهم حق الميراث، ويأخذون في إنكلترا نصف التركة إن لم يكن لهم ورثة آخرون، ويأخذ بيت المال بقية التركة، وإذا كان للزوج المتوفى زوجة وأولاد أخذت الزوجة ثلث التركة وأخذ الأولاد أو الحفدة بقيّتها.

51 — النساء: 11 - 12.

52 — يكون للأخوة أو الأخوات في فرنسا، كما في إنكلترا جميع التركة عند عدم وجود وارث من الأصول أو الفروع، وإذا مات الولد عن أب أو أم وإخوة أو أخوات تقاسموا في فرنسا التركة على النسبة المذكورة آنفاً.

53 — النساء: 176

54 — البقرة: 240

الحلف، فينطق بالحكم حالاً، وقد أُتيح لي في المغرب أن أشاهد إصدار هذه الأحكام المختصرة، فرأيت القاضي جالساً في الساحة التي هي أمام قصر الوالي، والخصوم والشهود حوله جثياً موجزين قضاياهم، وأحكام القاضي تُنفذ فوراً حينما يكون ذلك ممكناً.

أجل، تلك الطرق البسيطة لا تضيع وقت المتقاضين الثمين على كل حال، ولا تثقلهم بالنفقات القضائية التي تُدفع عادةً في العالم المتمدن فتخرب بيوتهم غالباً. وتكون أحكام أولئك القضاة عادلةً على العموم مع بساطة تلك الطرق، فروح العدل والإنصاف نامية كثيراً في المسلمين.

ونختم قولنا في نظم المسلمين الاجتماعية بأن نذكر أن المسلمين يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقاً لنظمهم السياسية، وأن مبدأ المساواة الذي أعلن في أوربا قولاً، لا فعلاً، راسخ في طبائع المسلمين رسوخاً تاماً، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدّى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي، وأنه ليس من الصعب أن ترى في الشرق خادماً زوجاً لابنة سيده وأن ترى أجراء منهم قد أصبحوا من الأعيان.

والكتّاب الأوروبيون الذين بحثوا عن بعد في شؤون أولئك الأقوام، وهم الذين لا يعلم الأوروبيون من أمورهم سوى القليل، يستخفون بتلك النظم، ويقولون إنها أدنى من نظمنا كثيراً، ويتمنون قرب الوقت الذي تستولي فيه أوربا الطامعة على تلك البقاع.

وغير ذلك ما يبيده الباحثون المحققون، وإليك مثلاً: ما جاء في كتاب ثمين وضعه العالم المتدين (مسيو لوبله) الذي هو ممن أجادوا دراسة أمور الشرق:

(صان المسلمون أنفسهم حتى الآن من مثل خطايا الغرب الهائلة فيما يمس رفاهية طبقات العمال، وتراهم يحافظون بإخلاص على النظم الباهرة التي يُساوي بها الإسلام بين الغني والفقير والسيد والأجير على العموم، وليس من المبالغة أن يُقال إن: إن الشعب الذي يزعم الأوروبيون أنهم يرغبون في إصلاحه هو خير مثال في ذلك الأمر الجوهري).

ولا شيء أكثر بساطةً من النُظم الإسلامية السياسية، فقد قامت على مساواة الجميع التامة، تحت سيّد واحد، أي تحت وكيل الله في الأرض الذي كان صاحب الوحيد لكل سلطة مدنيّة ودينيّة وحربيّة، والذي لم يكن في الدولة سلطة غير سلطته أو سلطة مندوبيّة، ولم يعرف المسلمون قطّ نظام الإقطاع والأرستقراطية والوظائف الوراثية.

وكان نظام المسلمين السياسيّ ديموقراطيّاً يديره سيد مطلق في الحقيقة (55)، وساد مبدأ المساواة التامة في هذا النظام.

وإذ لم يكن الخلفاء قادرين على ممارسة سلطانهم في جميع أنحاء دولتهم كانوا مضطرينّ إلى إنابة وُلاة عنهم ليقوموا مقامهم في القضاء والقيادة والإدارة، وكان ينشأ عما يتمتع به هؤلاء الُولاة من السلطة طمعهم في الاستقلال فيجدون فيما لديهم من السلطان المطلق وسائل لبلوغ ذلك، فكان على خلفاء المشرق والمغرب أن يحاربوهم على الدوام.

ولم ينشأ ضعف الخلفاء عن فتن الولاة الدائمة وحدها، بل هنالك علل كانت تفتّ في عضد الدولة الإسلامية أيضاً، ومن أهمّها اختلاف الشعوب التي خضعت لشريعة القرآن فيما بين المغرب والهند.

وكانت تلك النظم السياسية سبب عظمة المسلمين مع ما فيها من عوامل الضعف، ولا شيء أصوب من جمع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة، ما استطعنا أن نقدّر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح المسلمون العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البربر المتحاربين قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله).

وإذا نظرت إلى المسلمين أيام سلطانهم، أو إلى مختلف الأمم التي داومت بعدهم على نشر القرآن، رأيت نُظمها السياسية متجليّة في شكل ملكي حربي وديني مطلق (56)، وإذا كانت هذه النُظم قادرةً على إقامة الدول الكبيرة بسرعة لم تكفل

55 — نظام الإسلام السياسي في غير المعصوم (عليه السلام) يكون بالشورى وأكثرية الآراء.

56 — للسياسة في الإسلام جانبان: جانب ثابت، وجانب متطور، أما الجانب الثابت فهو:



بقاؤها إلا نادراً كما دلّ على ذلك تاريخ العرب والمغول والترك الذين لم تتقدّم دولهم العظيمة، وهي التي كان عليها أن تكافح المصاعب الداخلية والخارجية المتنوعة، إلا عندما كان على رأسها رجال عظماء.

من أجل ذلك ترى الدول الحربية الواسعة التي تقوم بسرعة تسقط بسرعة غالباً، ويدبّ الانحطاط في مفاصلها عندما يخلف الرجل العبقريّ الذي قبض على زمامها رجلٌ أو اثنان من ذوي العقول المتوسطة، شأن الأندلس والمشرق.

## الفصل الثامن

### المرأة في الشرق

#### أسباب تعدّد الزوجات في الشرق

لا يُدرك المرء نظم أمة أجنبية إلا إذا تناسى قليلاً مبادئ البيئة التي يعيش فيها وفرض نفسه من أبناء تلك الأمة، ولاسيما إذا كانت تلك النظم من نوع مبدأ تعدّد الزوجات الذي لمّا تعلّم حقيقة أمره إلا قليلاً فأسيء الحكم فيه.

ولا نذكر نظاماً أنحى الأوروبيون عليه باللائمة كمبدأ تعدّد الزوجات، كما أننا لا نذكر نظاماً أخطأ الأوروبيون في إدراكه كذلك المبدأ، وذلك أن أكثر مؤرخي أوربا اتزاناً يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزاوية في الإسلام، وأنه سبب انتشار القرآن، وأنه علّة انحطاط الشرقيين، ونشأت عن هذه المزاعم الغربية على العموم أصوات سخط، رحمةً بأولئك البائسات المكّدسات في دوائر الحريم واللائي يرقبهنّ خصيان غلاظ ويقتلن حينما يكرهنّ سادتهنّ.

ذلك الوصف مخالف للحق، وأرجو أن يثبت عند القارئ الذي يقرأ هذا الفصل،

1 - أن يكون رئيس الحكومة عادلاً.

2- أن يكون فقيهاً بأمور الدين والدنيا.

3 - أن يكون قادراً على إدارة الأمور.

4 - كما أنه يجب أن تكون قوانين البلاد عامة مستفادة من القرآن والسنة.

وأما الجانب المتطور فهو شكل الحكم، وكيفية صياغته، بما يلائم الظروف والبلاد والشعوب. (م ش).

بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوربية جانباً، إنّ مبدأ تعدّد الزوجات الشرقي نظام طيّب يرفع المستوى الأخلاقيّ في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تراهما في أوربا.

وأقول قبل إثبات ذلك: إنّ مبدأ تعدّد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، ولم تر الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غُماً جديداً إذن.

وتأثير الجوّ والعرق من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح كبير، وبما أن تركيب المرأة الجسمي وأمومتها وأمراضها، الخ، مما يكرهها على الابتعاد عن زوجها في الغالب، وبما أن التأيّم المؤقت مما يتعذر في جوّ الشرق، ولا يلائم مزاج الشرقيين، كان مبدأ تعدّد الزوجات ضربة لازب.

وفي الغرب، حيث الجوّ والمزاج أقلّ هيمنة، لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة - في غير القوانين، لا في الطبائع حيث ينذر - يعدّ أمراً مجحفاً للرجل ولحقوقه الجنسية.

ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدّد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدّد الزوجات السريّ عند الأوربيين، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه، وبهذا ندرك مغزى تعجّب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزراً.

ومن السهل أن ندرك علل إقرار الشرائع الشرقية لمبدأ تعدّد الزوجات بعد أن نشأ عن العوامل الجسمية المذكورة آنفاً، فحبّ الشرقيين الجمّ لكثرة الأولاد وميلهم الشديد إلى حياة الأسرة وخلق الإنصاف الذي يردعهم عن ترك المرأة غير الشرعية بعد أن يكرهوها، خلافاً لما يقع في أوربا، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة التي أعود إليها عما قليل، كلّها أمور تحفز الشرائع إلى تأييد العادات التي هي وليدة الطبائع.

ومن أسباب تعدّد الزوجات التي لم أذكرها بعد، ما هو خاصّ ببعض الطبقات وما يُفيد بيانه للدلالة على سيطرته في بعض البلدان.

قال (مسيو لوبله):

(يتزوج رب الأسرة صغيراً على العموم، وتضعف زوجته الأولى بعد أن تكون ذات أولاد كثر في حين يبقى تامّ القوة، فيُضطرّ إلى الزواج مرةً أخرى بتحريض الزوجة الأولى غالباً، وبموافقتها تقريباً.. وقد يعجب المرء أول وهلة من حمل امرأة زوجها على الزواج بامرأة أخرى، ولكن العجب يزول حينما نعلم أن النساء في الأسر الإسلامية (الزراعية) هنّ اللاتي يقمن بشؤون المنزل مهما كانت شاقّة، وذلك أنّ الفلاحين إذ كانوا يجهلون أمر اتّخاذ الخوادم لم يبق للنساء غير الاستعانة بالإماء والقريبات اللاتي يكنّ في الزمرة نفسها، وقد لا يكون هنالك قريبات، وقد لا تسمح الأحوال بشراء إماء، وقد تصبح الإماء عند شرائهنّ جوارى منافسات للزوجة الأولى في الحظوة لدى ربّ الأسرة، فلا يكون لدى الزوجة الأولى ما يستلزم تفضيل الإماء هؤلاء على الزوجات الشرعيات الأخرى، ومن ثمّ ترى أن الزوجة تشير في تلك الأحوال على زوجها بأن يبني بزوجة أخرى، ولاسيما إذا علمت أنها تصنع ذلك حينما تكون آخذة في الهرم منهمكة في واجبات الأمومة).

ومن العوامل المهمّة التي ذكرها ذلك المؤلّف في تعدّد الزوجات عند الشرقيين هو حبّهم للذريّة الكبيرة، ولا عجب، فالعقم عند الشرقيين من أعظم ما يصاب به إنسان، والشرقيّ إذا ما رُزق بضعة أولاد طمع في زيادة عددهم، وتزوج بنساء آخر وصولاً إلى هذا الغرض.

ولاحظ ذلك المحقّق أنّ تعدّد الزوجات عند الشرقيين لا يؤدّي إلى تحاسدهنّ وتنافسهنّ.

### تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق

لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدّد الزوجات الذي كان موجوداً قبل ظهوره، بل كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق، والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضهما خلافاً للمزاعم المكرّرة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوربية. أجل، أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوربا التي قالت به، ولكنه اشترط أن

يكون (لِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) (57).

وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق هو أن نبحث في حالهنّ قبل القرآن وبعده.

يمكننا استجلاء الحال التي كانت عليها النساء قبل ظهور النبي (صلى الله عليه وآله) من التحريم الآتي الذي جاء في القرآن: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (58).

وتحريم مثل هذا، يهون أمر دلالاته عندما نعلم أنّ ما أشار إليه من العادات كان شائعاً بين جميع الأمم السامية.

وكان الرجال قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) يعدّون منزلة النساء متوسطة بين الأنعام والإنسان من بعض الوجوه، أي أداة للاستيلاء والخدمة. وكانوا يعدّون ولادة البنات مصيبة، وشاعت عادة الوأد، وصار لا يجادل فيما لو كانت البنات جرّاءً (59) يقذف بها في الماء، ويمكننا أن نتمثّل عادة الوأد عند العرب من المحاوراة الآتية التي وقعت بين رئيس بني تميم قيس والنبي محمد (صلى الله عليه وآله) حينما رأى قيس النبي (صلى الله عليه وآله) يضع إحدى بناته على ركبتيه، والتي رواها (كوسان دوبرسفال):

قيس: من هذه الشاة التي تشمّها؟

النبي محمد (صلى الله عليه وآله): ابنتي.

قيس: والله كان لي بنات كثير، فوأدتهنّ من غير أن أشمّ واحدة منهنّ.

النبي محمد (صلى الله عليه وآله) - صارخاً -: ويل لك، يظهر أن الله نزع

57 - البقرة: 241.

58 - النساء: 23.

59 - الجراء: جمع جرو، وهو ولد الكلب.

الرحمة من قبلك، فلا تعرف أطيب النعم التي من الله بها على الإنسان.  
وإذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء، وجب علينا أن ننظر إليهن  
أيام ازدهار حضارة المسلمين.

والإسلام إذن، لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت  
فيه وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع، وإذا نظرت إلى سنيورات نصارى العهد الأول من  
القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب تاريخ  
ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر وعلمت أن رجال عصر الإقطاع  
كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من المسلمين أمر معاملتهن  
بالحسنى. ومن ذلك ما جاء في تاريخ (غاران لولوهران) عن معاملة النساء في  
عصر شارلمان وعن معاملة شارلمان نفسه لهن كما يأتي: (انقض القيصر شارلمان  
على أخته في أثناء جدال وأخذ بشعرها وضربها ضرباً مبرحاً وكسر بقفازه الحديدي  
ثلاثاً من أسنانها) فلو حدث مثل هذا الجدل مع سائق عربية في الوقت الحاضر لبدا  
هذا السائق أرق منه لا ريب.

ومن الأدلة على أهمية النساء أيام حضارة المسلمين: كثرة من اشتهر منهن  
بمعارفهن العلمية والأدبية، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي  
في المشرق والعصر الأموي في أسبانيا، ونذكر منهن بنت أحد الخلفاء، الذي كان  
جالساً على عرش الخلافة سنة 860 م، (ولادة) التي لقبت بسافو قرطبة، وقال كونه  
ملخصاً:

(إن نساء ذلك الزمن - الذي كان للعلم والأدب شأن عظيم فيه ببلاد الأندلس -  
كن محبات للدرس في خدورهن، وكان الكثير منهن يتميزن بدمائتهن ومعارفهن،  
وكان قصر الخليفة يضم لبنى، أي هذه الفتاة الجميلة العالمة بالنحو والشعر والحساب  
وسائر العلوم والكاتبة البارعة التي كان الخليفة يعتمد عليها في كتابة رسائله  
الخاصة والتي لم يكن في القصر مثلاً دقة تفكير وعذوبة قريض، وكانت فاطمة  
تكتب بإتقان نادر، وتنسخ كتباً للخليفة، ويعجب جميع العلماء برسائلها، وتملك  
مجموعة ثمينة من كتب الفن والعلوم، وكانت خديجة تنظم الأبيات الرائعة وتنشدها

بصوتها الساحر، وكانت مريم تعلّم بنات الأسر الراقية في أشبيلية العلم والشعر مع شهرة عظيمة فتخرجت في مدرستها نساءً بارعات كثيرات، وكانت راضية، المعروفة بالكوكب السعيد والتي حرّرها الخليفة عبد الرحمن وتنازل عنها لابنه الحكم، نابغة عصرها في القريض ووضع القصص الرائعة فساحت في الشرق بعد موت الخليفة وكانت محلّ هتاف العلماء في كل مكان).

وخبث حضارة قدماء الخلفاء الساطعة في عهد وارثي المسلمين، ولا سيما في عهد الترك، فنقص شأن النساء كثيراً، وسأبين في مكان آخر أن حالتهم الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوربا حتى عند الترك، وما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال.

وهنا نستطيع أن نكرّر، إذن قولنا أن الإسلام الذي رفع المرأة كثيراً، بعيداً من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي، فقد سبقنا إلى مثله (كوسان دوبرسفال) ثم (مسيو بارتمى سنت هيلر).

ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة، وهذا ما أوضحناه في كتابنا الأخير، فلا نرى غير تكرار ما ذكرناه فيه لإقناع القارئ:

كان الأغارقة، على العموم، يعدّون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تنفع لغير دوام النسل وتدبير المنزل، فإذا وضعت المرأة ولداً دميماً قضوا عليها، ومن ذلك قول (مسيو تروبلونغ):

(كانت المرأة السيئة الحظ التي لا تضع في اسبارطة ولداً قوياً صالحاً للجندية تُقتل).

وقال: (كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها بطريق العارية لتلد أولاداً من رجل آخر).

ولم ينل حظوة من نساء الإغريق في دور ازدهار الحضارة اليونانية سوى بنات الهوى اللاتي كنّ وحدهنّ على شيء من التخرج.

وكان جميع قدماء المشتريين يبدون مثل تلك القسوة على المرأة، ومن ذلك قول شرائع الهندوس: (ليس المصير المقدر والريح والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار أسوأ من المرأة).

ولم تكن التوراة أرحم بالمرأة من شرائع الهند، ومن ذلك قول سفر الجامعة أن (المرأة أمر من الموت) وأن (الصالح أمام الله ينجو منها)، (رجلاً واحداً بين ألف وجدت، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد).

وليست أمثال مختلف الأمم أكثر اعتدالاً، فالمثل الصيني يقول: (أنصت لزوجتك ولا تصدقها).

والمثل الروسي يقول: (لا تجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة).  
والمثل الإيطالي يقول: (المهماز للفرس الجواد والفرس الجموح، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة).

والمثل الأسباني يقول: (احذر المرأة الفاسدة ولا تركز إلى المرأة الفاضلة).  
وتعدّ جميع الشرائع الهندوسية واليونانية والرومانية والحديثة المرأة من فصلية الإماء أو الصبيان، ومن ذلك قول شريعة منو: (تخضع المرأة في طفولتها لأبيها وفي شبابها لزوجها وفي تأيّمها لأبنائها إذا كان لها أبناء، وإلا فإنها تخضع لأقرباء بعلها، أي لا يجوز ترك أمرها لها).

ويقرب من هذا ما ورد في شرائع اليونان والرومان، فقد كان سلطان الرجل في روما على زوجته مطلقاً، وكانت تُعدّ أمة لا قيمة لها في المجتمع، ولم يكن لها قاض سوى زوجها الذي بيده حقّ حياتها وحقّ موتها. ولم تعامل الشريعة اليونانية المرأة بأحسن من هذا، وهي لم تعترف لها بأيّ حقّ، ولا بحقّ الميراث.

ومن غير أن نذهب بعيداً إلى أحكام القوانين والديانات القديمة في نقص المرأة عقلاً وأخلاقاً، أذكر أن بعض العلماء المعاصرين أثبتوا ذلك النقص مستنديين إلى عوامل تشريحية ونفسية كثيرة، فحاولوا إقامة الدليل على أن الحضارات كلّما تقدّمت

اختلفت المرأة عن الرجل ذكاء(60).

وقديماً قال منشّرُ الهند الرزين (منو) الذي ظهر قبل النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بأكثر من ألفي سنة: (تعدّ المرأة زانيةً إذا خلت بالرجل مدّةً تكفي لإنضاج بيضة).

### الزواج عند المسلمين

أباح القرآن للمسلم أن يتزوَّج أربع نسوة من الحرّاء وما شاء من الإماء، ويُعدّ أولاد الإماء شرعيين كأولاد الحرّاء.

وللزواج أن يطلّق زوجته، ولكنه يجب عليه أن يصنع ما يكفل به مصيرها. وفي بلد كالشرق، حيث يسهل الزواج فيتزوَّج الرجال والنساء في ميعة الشباب يدرك السرّ في إمكان صرامة الطبائع بأشدّ ممّا في أوربا، والحقّ أن الطبائع في الشرق صارمة، وأنّ من النادر أن ترى رجلاً يتملّق زوجة رجل آخر لمخالفة ذلك للطبيعة عند الشرقيّين مع عدّه أمراً طبيعياً لدى الأوربيين، (فلا ترى هنالك، كما قال الدكتور ايزنبرت، مثل ما يكدر صفو الحياة الزوجية في أوربا من الخيانة التي هي أعظم إفساداً للأخلاق من تعدّد الزوجات على ما يحتمل).

ولا يزال ربّ الأسرة الشرقية محافظاً على سلطانه خلافاً لما هو واقع في الغرب، ولا تكلم النساء الشرقيات أزواجهنّ إلا بأدب، ويقتدي الأولاد بهنّ بطبيعة الحال.

وينظر المسلمون شزراً إلى العزوبة، والعزوبة تزيد في الغرب شيوعاً كلّ يوم كما دلّت عليه الإحصاءات، ومتى بلغ المسلم العشرين من عمره تزوج على العموم، ومتى بلغت المسلمة ما بين العاشرة والثانية عشرة من عمرها تزوجت على

60 - لا أكتّم أنني صاحب هذا الرأي الخصيب النتائج، ففصلته في مذكرة نشرتها بعنوان: (المباحث التشريحية والرياضية في ناموس تحولات حجم الجمجمة)، وفي هذه المذكرة حاولت أن أثبت أيضاً أن فروق الذكاء بين الرجال تبدو باطراد كلّما تمدنوا، وأن الحضارة تقودنا باستمرار إلى التفاوت لا إلى المساواة (المترجم).



العموم، وقد اعترف (ايبر) بفائدة هذه العادة فقال: (لا يسعنا إلا الشهادة بحسن تلك الروح البيئية وصلاح تلك الحياة المنزلية).

ويمتاز الزواج الشرقي عن الزواج الأوربي، بأن الزوج في الشرق هو الذي يدفع إلى أهل الزوجة مهراً متحولاً بحسب ثروتيهما، وبأن الزوجة عند أكثر الغربيين، ولاسيما طبقاتهم الموسرة، هي التي تدفع مبلغاً من المال يعرف بالدوتة لتتال زوجاً. وحقوق الزوجة التي نصّ عليها القرآن ومفسروه أفضل كثيراً من حقوق الزوجة الأوربية، فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلاً عن مهرها وعن أنه لا يُطلب منها أن تشترك في الإنفاق على أمور المنزل، وهي إذا أصبحت طالقاً أخذت نفقة، وهي إذا تأيمت نالت حصّة من تركّة زوجها.

وتعامل المرأة المسلمة باحترام عظيم فضلاً عن تلك الامتيازات، وتتل بذلك حالاً أجمع الباحثون المنصفون، ومنهم من ناصب بعاطفته مبدأ تعدّد الزوجات العداء، على الاعتراف بحسنها، ومن هؤلاء (مسيو دو أمسيس) الذي قال في معرض الحديث عن المرأة في الشرق، وذلك أن أنحي باللائمة على تعدّد الزوجات وفق وجهة نظره الأوربية:

(إنّ المرأة في الشرق تُحترم بنبل وكرم على العموم، فلا أحد يستطيع أن يرفع يده عليها في الطريق، ولا يجروّ جنديّ أن يسيء إلى أوقح نساء الشعب حتى في أثناء الشغب، وفي الشرق يشمل البعل زوجته بعين رعايته، وفي الشرق يبلغ الاعتناء بالأُم درجة العبادة، وفي الشرق لا تجد رجلاً يُقدم على إلزام زوجته بالعمل ليستفيد من كسبها، وفي الشرق يدفع الزوج مهراً إلى زوجته فلا تجيء الزوجة إلى بيت زوجها مصحوبةً بأكثر من جهازها ومن بضع إماء لها، وإذا طُلقت الزوجة في الشرق أو هجرت أعطاه الرجل نفقة لتعيش عن سعة، وحمل الزوج بعد الفراق على القيام بهذا الإنفاق يمنعه من إساءة معاملتها حذر مطالبته بالفراق).

والاعتراض الوحيد الظاهر الذي يوجّه إلى مبدأ تعدّد الزوجات هو أنه يجعل المرأة تعسة، وقد أجمع على فساد هذا الزعم الذي طال أمده جميع الأوربيين الذين درسوا أمره في الشرق عن كثب.

ولا تقل إن طرق حياة النساء في الشرق مانعة من تعليمهنّ في كلّ وقت، فقد رأيت ممّا تقدّم أنّ عدد النساء اللاتي اشتهرن أيام ازدهار حضارة المسلمين بعلومهنّ كان كثيراً للغاية، ولم يستند الكتّاب الذين تحدّثوا عن جهل المرأة الشرقية إلا إلى حال الإماء اللاتي يجلبن من أقاصي الأقطار ويشتريّن من أسواق النخاسة ويُشاهدن في بعض دوائر الحريم، وما هؤلاء الكتّاب إلا كمن يستتبط رُقيّ السيدة الباريسية الفاضلة من حال خادمة غرفتها.

وإنني أطمع أن يعتنع القارئ بعد وقوفه على ما تقدّم، بأنّ مبدأ تعدّد الزوجات أمر طيّب، وأنّ حبّ الأسرة وحسن الأدب وجميل الطبائع أكثر نمواً في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم، وأنّ الإسلام حسنّ حال المرأة كثيراً، وأنه أول دين رفع شأنها، وأنّ المرأة في الشرق أكثر احتراماً وثقافةً وسعادةً منها في أوروبا على العموم تقريباً.

## الفصل التاسع الدين والأخلاق

### تأثير الدين في المسلمين

تأثير دين النبي محمد (صلّى الله عليه وآله) في النفوس أعظم من تأثير أيّ دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً، أجل، قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء، ولكنك لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة في المساجد وصوم شهر رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقّة مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلاً في صوم الأربعين الذي يقوم به بعض النصارى كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وأفريقيا، ومن ذلك أن أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرّنين في الأصفاة ومتّهمين بأنواع الجرائم، فقضيتُ

العجب حين رأيتهم، وهم الذين خرقوا حومة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسي العقوبات، لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبي (صلى الله عليه وآله)، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاة عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه. وعلى من يرغب في فهم حقيقة أُمم الشرق، التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً، أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، حيث إن للدين تأثير عظيم فيهم.

### الطقوس الدينية في الإسلام

#### الفرق الإسلامية:

أرى أن أقول بضع كلمات عن الفرق الإسلامية قبل وصف طقوس المسلمين الدينية الأساسية:

يشتمل الإسلام على عدة فرق ككل دين، وبلغ عدد الفرق الإسلامية، منذ أوائل التاريخ الهجري، اثنين وسبعين فرقةً، وأكثر من هذا عدد الفرق البروتستانتية وحدها.

وفرقة أهل السنة وفرقة أهل الشيعة أقدم الفرق الإسلامية وأهمها، فأما الشيعة فيعتقدون أن الخلافة لصهر النبي (صلى الله عليه وآله) عليّ (عليه السلام) ويحترمون علياً (عليه السلام) كاحترامهم للنبي محمد (صلى الله عليه وآله) تقريباً، وأما أهل السنة فيرون خلافة الخلفاء صحيحةً وفق ترتيبهم.

والفرس من الشيعة، والعرب والترك (غالباً) من أهل السنة، وأهل نجد من الوهابيين.

وينظر بعض تلك الفرق إلى بعض بعين التسامح، وتصلح الفرق في سورية على الخصوص، أن تكون قدوة لمختلف الفرق النصرانية، وأنت لا تجد في العالم الإسلامي محاكم مثل محاكم التفتيش التي ألقت لحمل أنصار فرقة على انتحال مبادئ فرقة أخرى بالحديد والنار، وأنت تجد أساتذة منتسبين إلى مختلف المذاهب يعيش بعضهم بجانب بعض متفاهمين في الجامع الأزهر الذي هو أهم موئل للتعليم

الديني في الشرق.

ولنذكر الآن طقوس المسلمين الدينية المهمة:

الصلاة: الصلاة من أهمّ العبادات التي نصّت عليها شريعة النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، والمسلم لا يفرّ من أدائها مهما كانت أمته وطبقته.

ويجب أن تؤدّى الصلاة خمس مرّات في أوقات معيّنة من كلّ يوم كما أمر النبي (صلى الله عليه وآله)، ويدعو المؤذّنون من المآذن، في بلاد الإسلام الواسعة، معشر المسلمين إلى الصلاة بأصواتهم الجهيّرة وقت الفجر ووقت الظهر ووقت العصر ووقت المغرب ووقت العشاء، وصيغة الأذان هي:

(الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله(61))، حيّ على الصلاة(62)).

وإذا ما تمّ الأذان قام المسلمون إلى الصلاة رافعين أيديهم إلى آذانهم، تالين ما تيسّر من القرآن، ثم ركعوا وسجدوا غير مرّة. ويؤدّي المسلمون صلاة الجمعة وقت الظهر في المساجد بعد أن يستمعوا إلى خطبة الإمام، ويدوم ذلك ثلاثة أرباع الساعة.

وعلى المسلم أن يتوضأ قبل الصلاة، وتجد في كلّ مسجد حوضاً للوضوء.

الصوم: الصوم من أهمّ عبادات الإسلام أيضاً، ويصوم المسلمون على اختلاف طبقاتهم، ويراعي المسلمون في صيامهم شروط الصوم الشديدة بدقّة يصعب على الأوربي أن يتصوّرّها، ويقوم الصوم في شهر رمضان الذي يحلّ في فصول مختلفة مع السنين، على الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين من الفجر إلى غروب الشمس.

ويتضمّن امتناع المسلم عن الشرب والتدخين في النهار قهراً لنفسه، فإذا ما اقترب وقت الغروب رأيت المسلم حاملاً سيارته أو ممسكاً أنبوب نارجيلته منتظراً بفارغ الصبر، إيذان المؤذن بحلول وقت الإفطار، وإذا ما غربت الشمس استدرك المسلم ما

61 - أشهد أن علياً وليّ الله.

62 - حيّ على الفلاح، حيّ على خير العمل، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فاتته، وتناول طعامه وافرًا.

وفي ليالي شهر رمضان تُتار المقاهي، وتمثّل الروايات، وتشاهد الألعاب بعد الإفطار، وتُضاء المساجد.

الأعياد الدينية: أعياد المسلمين الدينية، خلا رمضان كثيرة، وأذكر منها يوم مولد النبي (صلى الله عليه وآله)، وليلة نصف شعبان المرهوبة التي توزن فيها مصائر الناس وتُنظّم، وعيد الأضحى الذي يدوم أربعة أيام من آخر أشهر السنة ويرمز إلى ضحيّة إبراهيم عليه السلام (63).

وتذبح كلّ أسرة خروفاً أو حيواناً آخر في عيد الأضحى، ويلبس المسلمون أفخر الملابس، ويمشون في الأسواق، وتُضاء المساجد بالمصابيح ذات الألوان، وأعدّ الليلية التي نظرتُ فيها إلى ميناء رودس المنار ليلة عيد الأضحى من أروع ما رأيتُ في حياتي.

وبلغ تأثير الإسلام في أدقّ شؤون المسلمين مبلغاً تكون معه جميع مراسمهم أعمالاً دينية، ومن تلك المراسم أنكحتهم وختاناتهم، والتي ليست في الحقيقة سوى أعمال دينية ومدنيّة معاً.

الحجّ: يعدّ حجّ المسلم لمكّة مرّة في العمر من أهمّ ما أمر به النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من الأمور الدينية والسياسية.

ويتمّ الحجّ بواسطة القوافل العظيمة التي يُعدّ أهمّها ما يخرج من القاهرة والشام، وتكون الرحلة طويلة، ويهلك فيها حجاج كثير، وتهون المشقة في سبيل زيارة الكعبة المشرفة الشهيرة أيام النبي محمد (صلى الله عليه وآله) والتي يرجع أصلها إلى أقدم قرون التاريخ.

وإذا ما اقترب الحجاج من مكة حلقوا وخلعوا ثيابهم وقاموا بضروب الوضوء ولبسوا الأزرق، ثم طافوا حول الكعبة سبع مرّات واستلموا الحجر الأسود الشهير، ثم توجّهوا إلى جبل عرفات القريب من مكة وسمعوا فيه خطبة الإمام، ثم أفاضوا إلى

حيث يرمون الشيطان بحصيات في الوادي الذي طرده منه إبراهيم (عليه السلام)، ثم نحروا الذبائح، ثم زار أكثرهم حمية المدينة التي تضم قبر الرسول (صلى الله عليه وآله).

وفي الغالب يبلغ عدد الذين يزورون مكة كل سنة مائتي ألف حاج (وزاد الآن إلى أكثر من مليون) (64)، وفي موسم الحج يتقابل المسلمون الذين يجيئون من أنحاء العالم الإسلامي الممتد من المغرب إلى الهند وحدود الصين ماراً بأفريقيا الوسطى. والحق أن المؤمنين أخوة كما أمر القرآن، وأن الحج فرض لتوثيق عرى الإخاء الإسلامي كما ذهب إليه متكلمو المسلمين، فإذا ما عقد الحجاج اجتماعاتهم التي لا يستطيع نصراني أن يلج فيها استقصى بعضهم احتياجات بعض وتفاهموا في شؤون الإسلام، ثم نشروا ذلك في جميع نواحي الإسلام، ولا نرى أن نسهب في بيان ما قد ينشأ من النتائج السياسية المهمة عن اجتماع الحجاج الذين يأتون مكة في موسم الحج من الأقاصي فتوحد بينهم المصالح الدينية المشتركة.

ولمكة أهمية تجارية كبيرة للغاية عدا أهميتها الدينية والسياسية، فمكة من أعظم أسواق العالم، وفيها يتقايس بالسلع التي تردّها من أنحاء الدنيا.

### المباني الدينية

#### المساجد والزوايا والمدارس، الخ.

المسجد مركز الحياة الحقيقي عند المسلمين، فالمسلمون يتخذون المسجد محلاً للاجتماع والعبادة والتعليم، والسكن عند الاقتضاء، لا لعبادة الله فقط كبيع النصارى. وقد أوضحنا في فصل سابق رسم المساجد العام، فذكرنا أن المساجد القديمة بُنيت على نمط واحد، أي أنها مؤلفة من ساحات قائمة الزوايا محاطة بأروقة، وأن الصلاة تقام في أوسع تلك الأروقة وتجد في وسط كل ساحة حوضاً للوضوء، وتجد في مكان الصلاة محراباً في الحائط متجهاً نحو مكة ومنبراً للوعظ وقمطراً يُفتح عليه

64 - والآن أكثر من مليوني حاج.

المصحف عند القيام بالأعمال الدينية، ومصابيح كثيرة معلقة بالسقف، وتجد الحصر والبسط كل ما فيه من أثاث.

وتوجد (أحياناً) بجانب مكان الصلاة في الغالب حجرة تضم ضريح مؤسس المسجد.

وتقوم على أركان المساجد مآذن ليُدعى المؤمنون من فوقها إلى الصلاة. ومن توابع المساجد، على العموم، حمامات وفنادق وأصابيل ومشاف ومدارس، وهكذا يتجلى اختلاط الحياة المدنيّة بالحياة الدينية عند المسلمين في مساجدهم. تظلّ المساجد مفتحة الأبواب من الفجر إلى العشاء، أي إلى نحو الساعة الثانية بعد الغروب.

وكلّ مسجد مستقلّ عن الآخر، ويُنفق على المسجد من ريع ما وقفه عليه مؤسسوه مع ما يضاف إليه من الحبس، ويدير شؤونه قيم يساعد جماعته من الأئمة والحجّاب والمؤذنين والسقّائين والخدم الخ، ممن تجدهم حتى في أصغر المساجد، ويمارس أئمة المساجد في الغالب مهناً أخرى بالإضافة إلى أمهم المصلّين في الأوقات المعيّنة.

وكما أن مساجد المسلمين مراكز للاجتماع وملاجئ للغرباء ومراجع للمرضى هي كذلك موائل للتعليم، وفي أصغر المساجد يُعلّم الأولاد، وتُعدّ المساجد الكبيرة من الجامعات التي لا تقلّ أحياناً عن جامعات أوروبا أهميّة، ونذكر منها الجامع الأزهر الشهير القائم في القاهرة والذي يضمّ ثلاثمائة أستاذ أو أكثر من عشرة آلاف طالب يقصدونه من جميع نواحي العالم الإسلامي.

حقاً إنّ الجامع الأزهر مركز ديني وأدبي مهمّ للغاية، وأنه يتخرّج على أساتذته خلق كثير من الوعاظ والعلماء والقضاة والأعيان والناظرين (65)، الخ.

فالعالم الذي استهانته به الأديان الأخرى يجله المسلمون حقاً، وإلى المسلمين يُعزى القول الصائب: (من البشر من يتعلمون فيعلمون، ويُعدّ من سواهم من

65 - هناك جامعات أخرى من قبيل الجامع الأزهر بل أقوى منها في النجف الأشرف وكربلاء المقدّسة وقم وخراسان وغيرها. (م ش).

الحشرات أو ممّن لا يصلحون لشيء ولا ينفعون).  
ولدى المسلمين أماكن دينية أخرى، كمزارات الأولياء التي هي أبنية صغيرة  
مكعبة تعلو كل واحدة منها قبة، والتي لا يخلو منها بلد إسلامي تقريباً.

### الأخلاق في الإسلام

أصول الأخلاق في القرآن طيبة، فالقرآن يأمر بالصدقة والإحسان والقري  
والاقتصاد في الرغائب والوفاء بالعهد وحبّ الأقربين واحترام الوالدين وحماية  
الأيامى واليتامى وبما نجده مكرراً فيه من درء السيئة بالحسنة.  
ومبادئ الأخلاق التي نصّ عليها القرآن، وإن كانت كاملة، اختلف تأثيرها  
باختلاف الشعوب والبيئات والأجيال.

وكانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أمم  
الأرض قاطبة، ولاسيما الأمم النصرانية، وكان عدلهم واعتدالهم ورأفتهم وتسامحهم  
نحو الأمم المغلوبة ووفائهم بعهودهم ونبل طباعهم مما يستوقف النظر ويناقض  
سلوك الأمم الأخرى، ولاسيما الأمم الأوروبية أيام الحروب الصليبية.  
ولو صحّ أن يكون للأديان ما يُعزى إليها من التأثير لوجب أن نقول: إنّ القرآن  
أفضل من الإنجيل ما بدت أمم الإسلام أسمى أخلاقاً من أمم النصرانية فيما مضى.  
ونشأ عن سيادة الترك الطويلة ونظامهم السياسي انحطاطاً في أخلاق الشرقيين  
الذين خضعوا لحكمها.

ولكن القرآن بريء من هذا الانحطاط.

وما تقدّم يُثبت بدرجة الكفاية، فساد الرأي الأوربي القائل إنّ دين النبي محمد  
(صلّى الله عليه وآله) هو سبب ما يُشاهد في بعض أمم الشرق من الانحطاط، ورأي  
فاسد مثل هذا مصدره ما قيل: من إبداعه لمبدأ تعدّد الزوجات، وما زُعم من أن  
جبريته تحمل الإنسان على الكسل، وما أُذيع من أنّ محمداً (صلّى الله عليه وآله) لا  
يطلب أتباعه بغير الشعائر السهلة، فالقارئ الذي سار معنا إلى هنا يرى درجة بُعد  
هذه المزاعم من الصحة، وقد رأينا أنّ مبدأ تعدّد الزوجات كان شائعاً في الشرق قبل



ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بقرون كثيرة، وأن جبرية القرآن ليست أشدّ مما جاء في كتب الأديان الأخرى، وأن المسلمين إذا كانوا جبريين بسجيتهم، ولو تؤدّ جبريتهم إلى الخمول ما شادوا دولة عظيمة، وأن أصول الأخلاق في القرآن سامية سموّ ما جاء في أي كتاب ديني آخر، وهذا إلى أن القرآن لو كان عاملاً في انحطاط مسلمي الشرق لوجب أن يتقلّت من ذلك الانحطاط الشرقيون الذين لا يقولون بمبدأ تعدّد الزوجات ولا يبدون جبريين كنصارى سورية، ونصارى سورية — كما أجمع كلّ من بحث في أمور الشرق — أخطأ أخلاقاً من المسلمين بدرجات.

إنّ أهمّ نتيجة يمكن استنباطها من جميع ما تقدّم هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنّت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدّاً، وقد لا تجد ديناً اتّفق له ما اتّفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق، والقرآن هو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة.

أجل، دخلت دولة المسلمين في ذمّة التاريخ، بيد أن الدين الذي كان سبباً في قيامها لا يزال ينتشر، وسيطر ظلّ النبي (صلى الله عليه وآله) من قبره على ملايين المؤمنين الذين يسكنون أقطار أفريقيا وآسيا الواسعة الواقعة بين المغرب والصين والبحر المتوسط وخطّ الاستواء (66).

## الفصل العاشر

### العلوم والآداب الإسلامية

#### مصادر معارف المسلمين العلمية والأدبية

كانت حضارة الفرس وحضارة بيزنطة العظيمتان تقذفان نيرانهما الأخيرة حينما بدأت فتوح المسلمين، وقد استوقف العالم الذي فتحه أتباع النبي (صلى الله عليه وآله) خيالهم المضطرب، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم بمثل نشاطهم في

66 — نفوس المسلمين على بعض الإحصاءات الأخيرة تبلغ ملياري مسلم.

فتوحهم، ولم يلبث الخلفاء، بعد أن شادوا دولتهم، أن أنشأوا في جميع المدن المهمة مراكز للتعليم وجمعوا حولهم كل عالم قادر على ترجمة أشهر الكتب، ولا سيما كتب اليونان.

والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها المسلمون على البحث، وإذا كانت هنالك أمم تساوت هي والمسلمون في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت المسلمين على ما يحتمل، والمسلمون كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التي روى بنيامين التپلي المتوفى سنة 1173م أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدا اشتغال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطيطة وقرطبة.. الخ، على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية، وكل ما يساعد على البحث العلمي.

وكان للمسلمين في أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمائة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخو المسلمين، وقد قيل بسبب ذلك، إن شارل الحكيم لم يستطع، بعد أربعمئة سنة، أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد يكاد تلتها يكون خاصاً بعلم اللاهوت.

ولم يلبث المسلمون بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان، أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتدال هذه الحقيقة جد علماء القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها.

ويُعزى إلى بيكن، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والترصد، اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة، مقام الأستاذ، ولكنه يجب أن يُعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل المسلمين وحدهم، وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات المسلمين، ولا سيما هنبولد، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم قال: (إن المسلمين ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريباً).

وقال مسيو سيديو:

(إنَّ أهمَّ ما اتَّصفت به مدرسة بغداد في البداية هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدةً لأعمالها، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استتباط العلل من المعلومات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادئ قال بها أساتذة من المسلمين، وكان المسلمون في القرن التاسع من الميلاد، حائزين لهذا المنهاج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات).

واختبر المسلمون الأمور وجربوها، وكانوا أول من أدرك أهمية هذا المنهاج في العالم، وظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً، قال دولنبر في كتاب (تاريخ علم الفلك): (تعدّ راصدين أو ثلاثة بين الأغارقة وتعدّ عدداً كبيراً من الرصاد بين المسلمين)، وأما في الكيمياء فلا تجد مجرباً يونانياً مع أن المجربين من المسلمين يعدّون بالمئات.

ومنح اعتماد المسلمين على التجربة مؤلفاتهم دقّة وإبتداعاً لا ينتظر مثلها من رجل تعودّ دراسة الحوادث في الكتب، ولم يبتعد المسلمون عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعدّر قيامها على التجربة.

ونشأ عن منهاج المسلمين التجريبي وصولهم إلى اكتشافات مهمّة، وسترى من مباحثنا في أعمال المسلمين العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيراً، وكان تراث اليونان العلمي قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل، ولما آل إلى المسلمين حولوه إلى غير ما كان عليه فتلقّاه ورثتهم مخلوقاً خلقاً آخر.

ولم يقتصر شأن المسلمين على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالمسلمون قد نشروها، كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربا من هذه الناحية، وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير أن المسلمين وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدّة قرون، وأننا لم نطلع على علوم قدماء اليونان

والرومان إلا بفضل المسلمين، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نُقل إلى لغاتنا من مؤلفات المسلمين إلا في الأزمنة الحاضرة.

## اللغة والفلسفة والآداب والتاريخ

### اللغة العربية

تعدّ اللغة العربية من اللغات السامية ولم تتحوّل اللغة العربية، إلا قليلاً منذ زمن النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، ولكنه طرأ تغيير على الخطّ، فالخطّ الأول المعروف بالخطّ الكوفي، الذي رُوي أنه اخترع في مدينة الكوفة، كان صعب القراءة لخلوّه من حروف العلة، فتحوّل هذا الخطّ في حوالي القرن الثامن من الميلاد بإدخال أصول الشكل والحركات إليه مع المواظبة على استعمال الخطّ الكوفي في الكتابات. ومع أن الفاتحين الذين ظهروا قبل العرب لم يستطيعوا أن يفرضوا على الأمم المغلوبة لغاتهم قدر العرب، بالعكس على فرض لغتهم عليهم، ولما صارت اللغة العربية عامّة في جميع البلاد التي استولوا عليها حلّت محلّ ما كان فيها من اللغات، كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية الخ، وكان للغة العرب مثل ذلك الخطّ زمنًا طويلاً، حتى في بلاد فارس.

وانتحل الترك أنفسهم، وهم الذين قهروا العرب، الخطّ العربي، ولا تجد في تركية إنساناً على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن بسهولة. ولم يشذ عن ذلك سوى الأمم اللاتينية الأوربية التي لم تقم اللغة العربية مقام لغاتهم القديمة، ومع ذلك فإنّ اللغة العربية ذات أثر عميق في اللغات اللاتينية، وقد ألف (دوزي) و(أنجلمن) معجماً في الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية.

وتركت لغة العرب أثراً مهماً في فرنسا نفسها وذكر سيديو والحقّ ما ذكر: (أن اللّهجات السائدة لولاية أوفرن وولاية ليموزان الفرنسييتين محشوة بالكلمات العربية، وأن أسماء الأعلام فيهما ذات مسحة عربية). قال هذا المؤلف:

(ومن الطبيعيّ أن تقتبس فرنسا وإيطاليا من العرب، الذين كانوا سادة البحر المتوسط منذ القرن الثامن من الميلاد، أكثر الاصطلاحات البحرية، ولاسيما البوصلة التي عزي أمرها إلى أهل الصين على غير حقّ، وأن تقتبس جيوشهما ألقاب ضباط جيوش المسلمين وتعابير وغي الحرب واستعمال بارود المدافع والقنابل والحراقات والقذائف، وأن تأخذ عن حكومة بغداد وحكومة قرطبة التعابير الإدارية، وأن يقلّد ملوك الأسرة الثالثة الفرنسية العرب في شيء فيأخذوا عنهم معظم اصطلاحات الصيد، وأهمّ من ذلك كلّ اصطلاحات العلوم التي اقتبسناها من العرب، فعلم الفلك عندنا مملوء بالتعابير العربية، وقل مثل ذلك عن الرياضيات حيث أخذنا عن العرب الاصطلاحات، وقل مثله عن الكيمياء حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات، وقل كذلك عن التاريخ الطبيعيّ والطبّ حيث أخذنا عنهم الاصطلاحات) (67).

واللغة العربية غنيّة جدّاً، وزاد غناها بما أُضيف إليها دائماً من التعابير الجديدة التي تسربت إليها من اللهجات التي اتصلت بها، وانظر إلى المعجم الذي ألفه ابن سيده المتوفى سنة 1065م تجده مشتملاً على عشرين مجلداً.

### فلسفة المسلمين

كانت فلسفة العرب، حينما شرعوا يدخلون ميدان الحضارة، مقتصرة على مبادئ علم النفس العملية التي هي وليدة التجربة، لا الكتب، والتي ينتفع الإنسان بها وحدها في مضمار الحياة.

واليونان هم أساتذة المسلمين الأوائل في الفلسفة، كما أنهم أساتذتهم في مختلف العلوم، ولم تلبث كتب أرسطوطاليس وأبيذقليس وهرقليوس وأبقراط وأبيقور وجميع أساتذة مدرسة الإسكندرية من الفلاسفة أن تُرجمت.

وفاق المسلمون أساتذتهم بسرعة في جميع العلوم التي تقوم على التجربة. والحقّ يقضي بالاعتراف للمسلمين بأنهم أول من أغضى عما نسميه حرية الفكر

67 — ذكر الدكتور غوستاف لوبون في كتابه بعض هذه الاصطلاحات فراجع.

في الوقت الحاضر.

### الشعر والأدب

ودوام المسلمون على قرض الشعر دوام حضارتهم، وإن لم يسبقوا المستوى الذي وُصل إليه قبل النبي (صلى الله عليه وآله)، وكان يقرض الشعر كل رجل مثقف، سياسياً كان أو فلكياً أو طبياً، ولم يكن لغواً قول بعضهم إن المسلمين وحدهم قرضوا من الشعر ما لم تقرضه أمم العالم مجتمعة، وكان من حبّ المسلمين للشعر أن صاروا في بعض الأحيان يؤلفون كتب التوحيد والفلسفة والجبر نظاماً، ومن يُطالع قصصهم ير أكثرها ممزوجة بقطع شعريّة.

ومما بلغ درجة الثبوت في أيامنا، كما يظهر، أن الأوربيين اقتبسوا فنّ القافية من المسلمين، ودلّت مباحث (فياردو) وغيره من الكتاب الكثيرين على هذا الأمر الذي كان الأسقف (هويه) قد بيّنه منذ زمن طويل.

ويُعزى مصدر الشعر الإسباني والشعر البروفنسي إلى ما كان لشعراء مسلمي الأندلس من التأثير، ويلوح لي هذا الرأي قوياً كالرأي السابق.

وزاول المسلمون جميع أنواع الأدب فضلاً عن الشعر، ويوجد للمسلمين روايات في المخاطر والحبّ والفروسية، وهم الذين لا نظير لهم في الفنّ. والمسلمون هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية، قال سيديو:

(كان خيال الشعراء يتجلى في الروايات والأقاصيص، وكان أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) من أكابر المحدثين دائماً وكانوا يجتمعون مساءً تحت خيامهم ليسمعوا بعض الأقاصيص العجيبة).

ومن أشهر الأقاصيص نذكر: مقامات الحريري ومقامات الهمذاني ورواية ألف ليلة وليلة على الخصوص.

والحكايات والرموز والأمثال من أكثر ما عني به في الشرق، ومنها يتألف نوع من الآداب التي تلائم النفس وتحفظ في الذاكرة بسهولة، مع أن الأفكار المجردة تتعب وتتسى سريعاً.

وأمثال المسلمين كثيرة للغاية، ومن أمثالهم اقتبست أسبانيا وبقية أوروبا عدداً من الأمثال غير قليل، ومن يدقق في حكمة (سانكو بانسا) ير قسمها الكبير، الذي لا ينضب معينه من أصل إسلامي.

### التاريخ

مؤرخو المسلمين كثيرون، وقد عدّ حاجي خليفة وحده في مكتبة الشرقية (كشف الظنون) 1200 مؤرخ مسلم.

### البيان والبلاغة

اهتمّ مؤلفو المسلمين بالأسلوب كثيراً، وكثرت كتبهم في البلاغة والنحو. وليس ما تقدّم سوى خلاصة لخالصة تاريخ آداب اللغة العربية، ومع ذلك فإنه يكفي للإمام بأهميّة آثارهم الأدبية وتنوّعها، ولن يكون لنا هدف غير هذا في كتاب مجمل كهذا الكتاب.

### الرياضيات وعلم الفلك

#### الرياضيات عند المسلمين

اتّسع البحث في الرياضيات، ولاسيما علم الجبر، عند المسلمين، وعُزي إليهم اكتشاف علم الجبر، ولكن أصوله كانت معروفة منذ زمن طويل، ومع ذلك فقد حول المسلمون علم الجبر تحويلاً تاماً، وإليهم يرجع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة. وبلغ علم الجبر من الانتشار بين المسلمين ما أُلّف معه (محمد بن موسى) كتاباً موطئاً له بأمر (المأمون) في أوائل القرن التاسع من الميلاد، ومن ترجمة هذا الكتاب اقتبس الأوربيون معارفهم الأولى لعلم الجبر، بعد زمن طويل.

وأقتصر على ذكر أهمّ أعمال المسلمين الرياضية بإيجاز، لما في بيانها مفصلاً من الدخول في الدقائق الفنية، وأقول: إن المسلمين هم الذين أدخلوا المماس إلى علم المتلّثات، وأقاموا الجيوب مقام الأوتار، وطبقوا علم الجبر على الهندسة، وحلّوا

المعادلات المكعبة، وتعمقوا في مباحث المخروطات، وحوّلوا علم المتثلثات الكريّة بردهم حلّ متثلثات الأضلاع إلى بضع نظريات أساسية تكون قاعدةً له. ولإدخال المماسّ إلى علم المتثلثات أهميّة عظيمة، واسمع ما قاله مسيو شال في كتابه (خلاصة تاريخ أصول الهندسة):

(لم تؤثر تلك الثورة العلمية المباركة، التي أدت إلى طرح تلك الطرق المركبة الثقيلة في الجيب، وتمام الجيب، في علماء القرون الحديثة إلا بعد مرور خمسمائة سنة، وذلك بدعوة ريجيو مونتانيوس، وإن جهل تلك الثورة كوبرنيك الذي ظهر بعد نحو قرن).

### علم الفلك عند المسلمين

علم الفلك هو من أوّل ما اعتنى به في بغداد، ولم يدرس المسلمون وحدهم مسأله، بل سار على طريقهم وارثوهم أيضاً، ولا سيما حفيد (تيمورلنك)، أولوغ بك، الشهير بزيجه، والذي يمكن عدّه المثل الأخير لمدرسة بغداد التي دام زمن ازدهارها سبعة قرون (750 - 1450م).

وكانت بغداد مركزاً مهماً لمباحث علم الفلك، ولكنها لم تكن مركز هذه المباحث الوحيد، فالمراصد التي كانت قائمة في البلاد الممتدّة من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي كثيرة، ومنها ما كان في دمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة، الخ.

وأهمّ مدارس الفلك ما كان في بغداد والقاهرة والأندلس.

ولا شيء يورث العجب أكثر من انتصار حضارة المسلمين على همجية جميع الغزاة ومن تخرّج هؤلاء الغزاة، من فورهم على مدرسة المسلمين المغلوبين، فقد دام عمل المسلمين في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمان طويل، وقد دام بفضل ذلك تقدم بغداد العلمي بعد أن صارت في قبضة الأجانب.

واليوم نعلم أن فلكيي الصين، ولا سيما كوشو كنغ (1280م)، استنبطوا معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب الإسلامية، ولذا نقول إن المسلمين هم الذين نشروا



علم الفلك في العالم كله بالحقيقة.

ونذكر بجانب مدرسة بغداد الفلكية، مدرسة القاهرة التي أخذت — بعد أن فصلت عن بغداد في أواخر القرن العاشر من الميلاد — تنافسها في ميدان العلم، فقد اعتنى ولاية أمورها بعلم الفلك اعتناء ولاة أمور بغداد به، وقد أصبح المرصد الذي أنشأوه على جبل المقطم، القائمة عليه القلعة في الوقت الحاضر، من الطراز الأول، وفي مرصد القاهرة وضع ابن يونس، المتوفى سنة 1007م، وذلك في عهد الحاكم (990 — 1021 م)، الزيج الكبير الذي سمّاه (الزيج الحاكمي) والذي حلّ محلّ الأزياج التي وضعت قبله، واستنسخ الزيج الحاكمي في جميع كتب علم الفلك ومنها الكتاب الذي ألفه كوشوكنغ في الصين سنة 1280م.

وروى ابن السبدي، الذي كان يقيم بالقاهرة سنة 1040م، أنّ مكتبة هذه المدينة كانت تشتمل في القرن الحادي عشر من الميلاد، على كرتين فلكيتين وستة آلاف كتاب في الرياضيات وعلم الفلك.

ولم تكن آثار المسلمين الفلكية في الأندلس أقلّ أهمية من آثار المسلمين الفلكية في المشرق.

وقد ذكر سيديو الذي درس رسائل الملك الأذفونش العاشر القشتالي الفلكية وما مائلها:

(إن المسلمين سبقوا كيبلر وكوبر نيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضوي وفي نظرية دوران الأرض، وإن أزياج الأذفونش العاشر المسماة (الأزياج الأذفونشية) مأخوذة عن المسلمين).

وكان علماء الفلك في أفريقيا، ولا سيما طنجة وفاس والمغرب ينافسون علماء الفلك في الأندلس، ولكننا نجهل آثارهم جهلنا لآثار علماء الأندلس، ونعلم مع ذلك، أنّ أبا الحسن الالمغربي، الذي كان يعيش في القرن الثالث عشر من الميلاد، عيّن بضبط لم يسبقه إليه أحد، العرض والطول لإحدى وأربعين مدينة أفريقيا واقعة بين المغرب والقاهرة، أي ما مسافته تسعمائة فرسخ، وأنّه قيّد مشاهداته في كتابه (جامع المبادئ والغايات في علم الميقات) الذي اشتمل على معارف ثمينة لآلات الرصد

الإسلامية، فترجم سيديو بعضه.

ومن اكتشافات المسلمين اكتشاف للاختلاف القمري الثالث المعروف بالاختلاف في الوقت الحاضر والذي قيل إن تيخو براهه اهتدى إليه في سنة 1601م لأول مرة.

## العلوم الجغرافية

### ريادات المسلمين الجغرافية

كان المسلمون من السّياح المقادير في كلّ وقت، وكانوا لا يخشون المسافات والمراحل، واليوم أيضاً نراهم يأتون مكّة من أقصى البقاع، ويجوبون بقوافلهم داخل أفريقيا كأمر بسيط، فيصادفهم فيها الأوروبيون الذين لا يبلغونها إلا بشقّ الأنفس. وكان للمسلمين منذ السنين الأولى من قيام دولتهم، علائق تجارية بما كان الأوروبيون يشكّون في وجوده من البلدان، كالصين وبعض البقاع الروسية ومجاهل أفريقيا، الخ.

وكانت طليعة رواد المسلمين مؤلّفة من تجار يسيحون للتجارة، وعلى ما كان يعوز هؤلاء من الاستعداد الضروري للتأمل العلمي لم تزل رحلاتهم التجارية من طرائف مفيدة في بعض الأحيان.

وكتاب سليمان، التاجر المسلم، الذي نُقل إلى اللغة الفرنسية في أوائل القرن الأخير، هو أول مؤلّف نشر في بلاد الغرب عن بلاد الصين.

وإذا كان سليمان باحثاً عادياً فغير ذلك شأن المسعودي الشهير الذي وُلد ببغداد في أواخر القرن التاسع من الميلاد، فقد قضى المسعودي خمساً وعشرين سنة من حياته في الطواف في مملكة الخلفاء الواسعة وفي الممالك المجاورة لها كبلاد الهند، وقيد ما شاهده في تأليفه الكثيرة المهمة التي نعدّ كتاب (مروج الذهب) أشهرها.

وآخر رحالة مسلم كبير نذكره هو ابن بطوطة الذي بدأ بسياحاته في سنة 1325م، مسافراً من مدينة طنجة المغربية ومتجولاً في أفريقيا الشمالية ومصر وفلسطين والعراق وشمال جزيرة العرب إلى مكّة، وفي روسيا الجنوبية

والقسطنطينية، الخ. والذي ذهب إلى بلاد الهند ماراً من بخارى وخراسان وقندهار، فبلغ مدينة دهلي التي كانت من العواصم الإسلامية، والتي أوفده سلطانها إلى عاهل الصين فانتهى إلى بلاد الصين بحراً، وقد زار في طريقه إلى الصين سيلان وسومطرة وجاوة، ووصل إلى المدينة التي تُعرف بـ(بكين) في الوقت الحاضر، ثم عاد إلى وطنه بطريق البحر.

ودامت تلك السياحات الأولى التي قام بها ابن بطوطة أربعاً وعشرين سنة، ولكن ابن بطوطة لم يشعر في أثائها بتعب، فقد زار بعدها بلاد الأندلس وأوغل في قلب أفريقيا وانتهى إلى مدينة تنبكتو، وتوفي ابن بطوطة في مدينة فاس سنة 1377م بعد أن طاف تقريباً في جميع العالم الذي كان معروفاً في عصره، فريادات كالتى أتاها تكفي لتمجيد من يقوم بها في زماننا أيضاً.

### التقدم الذي حققه المسلمون في الجغرافية

كان من نتائج ريادات المسلمين ومعارفهم الفلكية التي ذكرتها أن اتفق لعلم الجغرافية تقدّم مهمّ ولا غرو فالمسلمون الذين اتّخذوا في البداية علماء اليونان، ولاسيما بطليموس، أدلاء لهم في علم الجغرافية لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم.

كانت مواضع المدن الكثيرة التي عينها بطليموس تعييناً جغرافياً غير مطابقة للحقيقة تماماً، وبلغ مقدار غلطه في تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمئة فرسخ.

ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها الأغارقة والأمكنة التي عينها المسلمون ليظهر لنا مقدار التقدّم الذي تمّ على أيدي المسلمين، فهذه المقابلة تدلّ على أنّ مقدار العرض الذي حققه المسلمون يقرب من الصحة بما لا يزيد على بضع دقائق، وأنّ خطأ الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة.

وكتب المسلمين التي انتهت إلينا في علم الجغرافية مهمّة للغاية، وكان بعضها أساساً لدراسة هذا العلم في أوربا قروناً كثيرة.

وأقدم كتاب نعرفه عن المسلمين في علم الجغرافية هو الكتاب الذي نشره النضر البصريّ.

وأشهر جغرافيّ المسلمين هو الإدريسي، ومن كتب الإدريسي التي ترجمت إلى اللاتينية تعلّمت أوروبا علم الجغرافية في القرون الوسطى.

وخريطة الإدريسي التي نشرت صورتها (68)، والتي اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة، أي على هذه الأماكن التي لم يكتشفها الأوروبيون إلا في العصر الحاضر، أكثر خرائطه طرافةً، فهي تثبت أنّ معارف المسلمين في جغرافية أفريقيا أعظم مما ظنّ زمنًا طويلًا.

فالمسلمون هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدّت أول أساس للخرائط، فصَحّحوا أغلاط اليونان العظيمة في المواضع، والمسلمون من ناحية الريّاد، هم الذين نشروا رحلات عن بقاع العالم التي كان يشكّ الأوروبيون في وجودها فضلاً عن عدم وصولهم إليها، والمسلمون من ناحية الأدب الجغرافي، هم الذين نشروا كتباً قامت مقام الكتب التي ألّفت قبلها، فاقتصرَت أمم الغرب على استساخها قروناً كثيرة.

### الفيزياء وتطبيقاتها

### الفيزياء والميكانيكا

### الفيزياء:

ضاعت كتب المسلمين المهمّة في الفيزياء، ولم يبق منها غير أسمائها ككتاب الحسن بن الهيثم في الرؤية المستقيمة والمنعكسة والمنعطفة، وفي المرايا المحرقة، ومع ذلك فإننا نستدلّ على أهمية كتب المسلمين في الفيزياء من العدد القليل الذي وصل إلينا منها، ولا سيّما كتاب الحسن في البصريّات الذي نُقل إلى اللغة اللاتينية واللغة الإيطالية، فاستعان كيبلر به كثيراً في كتابه عن البصريّات.

68 — نشر الدكتور غوستاف لوبون في كتابه الخريطة، فراجع.

فعدّ مسيو شال، الذي هو حجة في هذه الموضوعات، هذا الكتاب مصدر معارفنا للبصريّات.

### الميكانيكا:

معارف المسلمين الميكانيكيّة العملية واسعة جداً، ويستدلّ على مهارتهم في الميكانيكا من بقايا آلاتهم التي انتهت إلينا ومن وصفهم لها في مؤلفاتهم. ورأى الدكتور (إ. برنارد الأكسفوردي): أن المسلمين هم الذين طبّقوا الرقاص على الساعة.

### الكيمياء

كيمياء المسلمين مشوبة بالسيمياء، كما كان علم الفلك عندهم مشوباً بفنّ التنجيم، ولكنّ مزج العلم المثبت بالخيال لم يمنع المسلمين من الوصول إلى اكتشافات مهمّة. والمعارف التي انتقلت من اليونان إلى المسلمين في الكيمياء ضعيفة، ولم يكن لليونان علم بما اكتشفه المسلمون من المركّبات المهمّة كالكحول وزيت الزاج (الحامض الكبريتي) وماء الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب وما إلى ذلك، وقد اكتشف المسلمون أهمّ أسس الكيمياء كالتقطير.

قال بعض المؤلّفين: إن لافوازيه واضع علم الكيمياء - وقد نسوا أننا لا عهد لنا بعلم من العلوم، ومنها علم الكيمياء - ابتدعه دفعة واحدة، وأنه وجد عند المسلمين من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافات لم يكن لافوازيه ليستطيع أن ينتهي إلى اكتشافاته بغيرها.

وأقدم علماء المسلمين في الكيمياء وأكثرهم شهرة هو جابر الذي عاش في أواخر القرن الثامن من الميلاد والذي ألف كتباً كثيرة فيها، ونقل عدد غير قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية، وقد نقل كتابه (الاستتمام)، الذي هو من أهمّ كتبه، إلى اللغة الفرنسية في سنة 1672م، فدلّ هذا على دوام نفوذه العلمي في أوروبا مدّة طويلة. ويتألّف من كتب جابر موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل إليه علم كيمياء

المسلمين في عصره، وتشتمل هذه الكتب على وصف كثير من المركبات الكيماوية التي لم تذكر قبله، كماء الفضة (الحامض النتري) وماء المهمين اللذين لا نتصور علم الكيمياء بغيرهما.

واشتملت كتب جابر على بيان كثير من المركبات الكيماوية التي كانت مجهولة فيه، كماء الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب والبوتاس وملح النشادر وحجر جهم (نترات الفضة) والسليمانى والراسب الأحمر، وكان جابر أول من وصف في كتبه أعمالاً أساسية كالتقطير والتصعيد والتبلور والتذويب والتحويل، الخ.

واكتشف المسلمون أيضاً مركبات أخرى لا غنى للكيمياء والصناعة عنها. وضاع أهم كتب الكيمياء الإسلامية، خلا مؤلفات جابر والرازي، فنأسف على ذلك بعد أن تجلّت لنا قيمة ما هو بين أيدينا منها. وابتدع المسلمون فنّ الصيدلة.

### العلوم التطبيقية — الاكتشافات

المعارف الصناعيّة: لم يهمل المسلمون أمر التطبيقات الصناعية مع قيامهم بمباحثهم النظرية، وكان لصناعات المسلمين تفوّق عظيم بفضل معارفهم العلمية، ونعلم ما أدّت إليه صناعاتهم من النتائج، وإن جهلنا أكثر طرقها، فنعرف مثلاً أنّهم كانوا يعلمون كيفية استغلال مناجم الكبريت والنحاس والزنبق والحديد والذهب، وأنهم كانوا ماهرين في الدباغة، وفي فنّ تسقية الفولاذ، كما تشهد بذلك نصال طليطلة، وأنه كان لنسائجهم وأسلحتهم وجلودهم وورقهم شهرة عالمية، وأنه لم يسبقهم أحد في كثير من فروع الصناعة إلى عصرهم.

وأثبتت مباحث (مسيو رينو) و(مسيو فافيه)، وقد سبقهما إليها (الغزيري) و(أندره) و(فياردو)، أن المسلمين هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار الدافع للقذائف.

وأن المسلمين هم أصحاب هذا الاختراع العظيم الذي قلب نظام الحرب رأساً على عقب.

وجرى المؤرخون على الرأي القائل إن المعركة الأولى التي استعملت فيها المدافع هي معركة كريسبي التي حدثت سنة 1346م، والحقيقة هي ما أثبتته مؤرخو المسلمين في مؤلفاتهم من النصوص الكثيرة التي تدلّ على أن استعمال المدافع وقع قبل تلك السنة بزمان طويل، حيث استعملها أحد أمراء المسلمين.

وحَصَرَ كونت دربي وكونت سالسبري الإنكليزيان ذلك الحصار، وشاهدنا نتائج استخدام البارود، ونقلنا ذلك الاختراع إلى بلادهم من فورهم واستخدمه الإنكليز في معركة كريسبي بعد ذلك بأربع سنين.

#### الوراقة:

كان الأوروبيون في القرون الوسطى يكتبون على الرقوق لزمن طويل، وكان غلاء أسعارها مانعاً من توفر المخطوطات فيها، ونشأ عن ندرتها أن تعود الرهبان حَكَّ كتب كبار المؤلفين من اليونان والرومان ليستبدلوا بها مواضعهم الدينية، ولولا المسلمون لضاع أكثر هذه الكتب الرائعة القديمة التي زُعم أنها حفظت في أروقة الأديار باعتناء.

وكان اكتشاف مادة تقوم مقام الرقّ وتشابه برديّ قدماء المصريين يُعدّ من أعظم العوامل في نشر المعارف.

وتثبت المخطوطة التي عثر عليها الغزيري في مكتبة الاسكوريال والمكتوبة في سنة 1009م على ورق مصنوع من القطن، والتي هي أقدم من جميع المخطوطات الموجودة في مكتبات أوربا، أن المسلمين أول من أحلّ الورق محلّ الرقّ.

ومن الثابت أن الصينيين كانوا يعلمون منذ أقدم الأزمان صناعة الورق من شرائق الحرير. والمسلمون حين أقاموا القطن مقامه، ولم يلبث المسلمون أن بلغوا في إتقان صناعة الورق من القطن شأواً لم يسبق، كما دلّ عليه البحث في مخطوطات المسلمين القديمة.

ومن الثابت أيضاً أنّ المسلمين اخترعوا من الأسمال صناعة الورق الصعبة الكثيرة التراكيب.

ونشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس أيام سلطان المسلمين، بما

لم تعرفه أوروبا في ذلك الزمن أن اضطرّ المسلمون إلى زيادة مصانع الورق، فانتهوا إلى صنعه، بإتقان عظيم، من القنب والكتّان الوافرين في الحقول في ذلك الحين.

### استخدام البوصلة في الملاحة:

البوصلة من اختراع الصينيين، ولكنه لم يقدّم دليل على استخدامهم لها في الملاحة.

وكان من الراجح أن يكون المسلمون أول من استخدم البوصلة في الملاحة. والذي لا ريب فيه هو أن الأوربيين أخذوا هذا الاختراع المهمّ عن المسلمين. وثبت مما تقدم أن اكتشافات المسلمين في الطبيعيات ليست أقلّ أهمية منها في الرياضيات وعلم الفلك وأن معارف المسلمين كانت عالية في الفيزياء النظرية، ولاسيما البصريّات، وأن المسلمين اخترعوا من الآلات الميكانيكية ما هو على جانب عظيم من الدقّة، وأنهم اكتشفوا أهمّ المركّبات الكيماويّة، وأنهم أبدعوا ألزم الأعمال كأصول التقطير، وأنهم طبقوا الكيمياء على الصيدلة والصناعة، ولاسيما استخراج المعادن وصنع الفولاذ والدباغة، الخ. وأنهم اخترعوا البارود والأسلحة النارية، وصنعوا الورق من الأسمال، وطبّقوا البوصلة على الملاحة كما هو الراجح، وأدخلوا هذا الاختراع المهمّ إلى أوروبا، وما يأتي يدلّ على مقدار فضلهم في الطبيعيات.

### العلوم الطبيعيّة

لم يقدّم التاريخ الطبيعي عند المسلمين في البداية على غير شروح مؤلّفات أرسطو، ولكنّ المسلمين لم يلبثوا أن فضّلوا درسه في الطبيعة على درسه في الكتب، وللمسلمين الفضل فيما وضعوا من الكتب الممتعة الكثيرة في الحيوانات والنباتات والمعادن والمتحجرات، الخ.

وبحث علماء الطبيعة من المسلمين، أيضاً في النباتات وفي تطبيقاتها على الطبّ على الخصوص، وأنشأوا حدائق زرعوا فيها أندر النباتات وأكثرها طرافة، ومن ذلك أن اشتملت غرناطة على حديقة رائعة في القرن العاشر من الميلاد، ومن ذلك



أن كان لعبد الرحمن الأول حديقة مثلها بالقرب من قرطبة، وأن أوفد جماعة من علماء الطبيعة إلى سورية وغيرها من أقطار آسيا ليأتوا إليها بأعزّ النباتات.

### العلوم الطّبيّة

يُعدّ الطبّ والفلك والرياضيات والكيمياء أهمّ العلوم التي عني بها المسلمون، وأتمّ المسلمون أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم، وترجمت مؤلّفات المسلمين الطّبيّة في جميع أوربا، ولم يتلف قسم كبير منها كما أصاب كتبهم الأخرى.

آثار المسلمين الطّبيّة: عدد المؤلفين من أطباء المسلمين كبير للغاية، وخصّص ابن أبي أصيبعة مجلّداً من كتابه لتراجم أطباء المسلمين.

منهم الرازيّ، الذي هو من أشهر أطباء المسلمين، وولد الرازيّ سنة 850م، وتوفيّ سنة 932م، بعد أن زاول الطبّ في بغداد خمسين سنة، وألّف الرازي في شتّى الموضوعات كالفلسفة والتاريخ والكيمياء والطبّ الخ. ووضع الرازي آثار من ظهر قبله من الأطباء على محكّ النقد الشديد فوق فراش المرضى، وكان ما كتبه في بعض الحميّات ذات البثور كالحصبة والجذري معولّ الأطباء زمناً طويلاً، وكان واسع الاطلاع على علم التشريح، وكان كتابه في أمراض الأطفال أول كتاب بحث هذا الموضوع، ويرى في كتبه وسائل جديدة للمداواة، كاستخدام الماء البارد في الحميّات المستمرة الذي أخذ به علم الطبّ الحديث، وكاستخدام الكحول والفتائل، وكاستخدام المحاجم لمعالجة داء السكتة، الخ.

وترجمت أكثر كتب الرازي إلى اللغة اللاتينية وطُبعت عدّة مرات.

وظلت جامعات الطب في أوربا تعتمد على كتبه زمناً طويلاً، وكانت كتبه، مع كتب ابن سينا، أساساً للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر من الميلاد.

ونذكر من أطباء المسلمين: علي بن العباس المعاصر للرازي تقريباً، والذي عاش في أواخر القرن العاشر من الميلاد، ونذكر من كتبه كتاب (الملكي) المشتمل على الطبّ النظري والطب العملي والذي استند فيه إلى مشاهداته في المشافي، لا إلى الكتب، وأظهر فيه عدّة أغلاط أبقرات وجالينوس وأريباسيوس وبولس الاجيني، الخ.

وابتعد فيه عن مبادئ الطب اليوناني كثيراً في معالجة الأمراض على الخصوص مع اعتماده عليها وترجم اتيان الأنطاكي هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية سنة 1127م، وطبع هذا الكتاب في مدينة ليون سنة 1523م.

وابن سينا هو أشهر جميع أطباء المسلمين، وبلغ ابن سينا من التأثير في عالم الطب عدّة قرون ما لُقّب معه بأمرير الطب.

ونقلت كتب ابن سينا إلى أكثر لغات العالم، وظلت مرجعاً عاماً للطب ستة قرون، وبقيت أساساً للمباحث الطبية في جميع جامعات فرنسا وإيطاليا، وكان طبعها يعاد حتى القرن الثامن عشر، ولم ينقطع تفسيرها في جامعة مونبلييه إلا منذ خمسين سنة. وأبو القاسم القرطبي المتوفى سنة 1107م هو أشهر جراحى المسلمين، وتخيّل أبو القاسم كثيراً من آلات الجراحة ورسمها في كتبه، ووصف أبو القاسم عملية سحق الحصة في المثانة على الخصوص فعّدّت من اختراعات العصر الحاضر على غير حق.

وطبعت الترجمة اللاتينية الأولى لكتاب أبي القاسم في الجراحة سنة 1497م، والطبعة الأخيرة لهذا الكتاب حديثة جداً، أي تمّت سنة 1861م. وطبعت كتب ابن رشد في الطب كثيراً في أوروبا.

### علم الصحة عند المسلمين:

لم يجهل المسلمون أهمية حفظ الصحة، وكان المسلمون يعرفون جيداً أن علم الصحة يعلمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطبّ شفاءها، وكانت مناهجهم الصحية طيّبة منذ القديم، وما أمر به القرآن من الوضوء والامتناع عن شرب الخمر ثم ما سار عليه أبناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غاية في الحكمة، وليس فيما نسب إلى النبي (صلى الله عليه وآله) من الوصايا الصحية ما ينتقد.

ويظهر أن مشافي المسلمين التي أنشئت فيما مضى أفضل صحياً من مشافينا الحديثة فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير.

ولما عهد إلى الرازي في اختيار أفضل حيّ في بغداد لإقامة مشفىّ عليه التجأ إلى طريقة لا ينكرها عليه أصحاب نظرية المكروب الحديثة، وذلك أنه علّق قطعة لحم في كل حيّ من أحياء العاصمة وأعلن أن أصلح حيّ يقام عليه المشفى هو الحيّ الذي يتأخّر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة عن الأحياء الأخرى.

وكانت مشافي المسلمين، كمشافي أوروبا في الوقت الحاضر، فيها ملاجئ للمرضى وأماكن لدراسة الطلاب، وكان الطلاب يتلقون دروسهم في فرش المرضى أكثر مما يتلقونها في الكتب، ولم تقلّدهم جامعات أوروبا في القرون الوسطى إلا قليلاً. وأنشأ المسلمون مشافي للمصابين ببعض الأمراض كالمجانين، وكان عند المسلمين، كما عندنا، جمعيات للإحسان تقوم بمعالجة فقراء المرضى مجاناً في أيام معيّنة، وكان يرسل في الحين أطباء وأدوية إلى الأماكن القليلة الأهمية التي لا تستحق أن يقام فيها مشفى.

ولم يجهل المسلمون تأثير الجوّ الصحي، ومن ذلك نص (ابن رشد) في شروح لكتب (ابن سينا) على تأثير الإقليم في داء السلّ وتوصيته المصابين به، كما يوصون الآن، بأن يقضوا فصل الشتاء في جزيرة العرب وبلاد النوبة، واليوم نرى المصابين بداء السلّ يرسلون في الغالب، إلى بقاع النيل القريبة من بلاد النوبة.

وتتطوي وصايا مدرسة ساليرم على نصائح غالية في علم الصحة، ولا أحد يجهل أن هذه المدرسة التي عدّت أول مدرسة في أوروبا زمناً طويلاً، مدينة للمسلمين بشهرتها، وذلك أن النورمان، لما استولوا على صقلية وعلى جزء من إيطاليا في أواسط القرن الحادي عشر من الميلاد، أحاطوا مدرسة الطب التي أنشأها المسلمون بما أحاطوا به المعاهد الإسلامية من الاعتناء الكبير، وأن قسطنطين الإفريقي الذي كان من عرب قرطاجة عُين رئيساً لها، وأنه ترجم أهمّ كتب المسلمين الطبيّة إلى اللغة اللاتينية، فاقترنت من هذه الكتب وصايا مدرسة ساليرم التي ظلت سبب شهرتها الفائقة زمناً غير قصير.

وكان المسلمون يعتمدون كثيراً على علم الصحة في معالجة الأمراض وعلى الوسائل الطبيعية، وليس غير ذلك أمر الطبّ القائم على المداواة الطبيعية التي استقرّ

عندها العلم الحديث كما يظهر، ويلوح لي على الأرجح، أن الطب الإسلامي في القرن العاشر من الميلاد، لم يؤدّ إلى وفيات أكثر مما يقع في هذه الأيام.

### تقدّم المسلمين في الطب:

إنّ أهمّ تقدّم للمسلمين في عالم الطب هو ما كان في الجراحة ووصف الأمراض وأنواع الأدوية والصيدلة، وظهر للمسلمين عدّة طرق يعود الطب الحديث إلى بعضها بعد إهمالها قروناً كثيرة كاستعمال الماء البارد في معالجة حمّى التيفوئيد. والطبّ مدين للمسلمين بعقاقير كثيرة كالسليخة والسنا المكّي والراوند والتمر الهندي وجوز القيقق والقرمز والكافور والكحول وما إلى ذلك، وهو مدين لهم بفنّ الصيدلة وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تستعمل كالأشربة واللعوق واللزقات والمراهم والدهان والمياه المقطّرة، الخ.

والطبّ مدين لهم، كذلك بطرق طريفة في المداواة عاد إليها على أنها اكتشافات حديثة بعد أن نُسيّت زمناً طويلاً، ومنها طريقة امتصاص النبات لبعض الأدوية كما صنع ابن زهر الذي كان يعالج المرضى المصابين بالقبض بإطعامهم عنباً أُشرب من بعض المسهلات.

وعلم الجراحة مدين للمسلمين أيضاً بكثير من مبتكراته الأساسية، وظلّت كتبهم فيه مرجعاً للدراسة في كليات الطبّ إلى وقت قريب جداً، ومن ذلك أن المسلمين كانوا يعرفون في القرن الحادي عشر من الميلاد معالجة غشاوة العين بخفض العدسة أو إخراجها، وكانوا يعرفون عملية تفتيت الحصاة التي وصفها أبو القاسم بوضوح، وكانوا يعرفون صبّ الماء البارد لقطع النزف، وكانوا يعرفون الكاويات والفتائل الخ، وكانوا يعرفون المرقّد الذي ظنّ أنه من مبتكرات العصر الحاضر، وذلك باستعمال الزؤان لتتويم المريض قبل العمليات المؤلمة حتى يفقد وعيه وحواسه.

### الفصل الحادي عشر

## الفنون الإسلامية

### الرسم والحفر والفنون الصناعية

يكفي الإنسان أن ينظر إلى إحدى البنايات التي أُقيمت في دور راق من أدوار الحضارة الإسلامية مسجداً كان ذلك البناء أو قصراً، أو أن ينظر إلى ما صنّع فيه من دواة أو خنجر أو جلد قرآن، ليرى أن لهذه الآثار طوابع خاصّة لا يتطرق الوهم إليها في أصلها، والباحث في مصنوعات المسلمين، كبيرة كانت أو صغيرة، لا يرى فيها أية صلة ظاهرة بمصنوعات أية أمّة أخرى، فالإبداع في مصنوعات المسلمين تامّ واضح.

وتتجلّى قوة الإبداع الفني في الأمم في سرعة تحويل ما ظفرت به من عناصر الفنّ وجعله ملائماً لاحتياجاتها وابتكارها بذلك فناً جديداً، فإذا تحقّق هذا لدينا علمنا أن المسلمين لم تسبقهم أمّة.

وظهرت قوّة المسلمين الإبداعية منذ أقاموا مبانيهم الأولى كجامع قرطبة الذي أمّلوا دقائق صنعته على من استخدموا في بنائه من متقنّي الأجانب.

ومن ذلك أن أعمدة المعابد القديمة التي أخذها المسلمون في قرطبة كانت قصيرة غير صالحة ليقوم عليها سقف عال كسقف ذلك الجامع، وأنهم وضعوا بعضها فوق بعض ساترين عدم صلاحها بتلك الحنايا الدالة على مهارتهم الفائقة.

وما على المرء إلا أن ينظر إلى آثار المسلمين الأدبية والفنية ليعلم أنهم حاولوا تزيين الطبيعة دائماً، وذلك لما اتصف به الفنّ الإسلامي من الخيال والنضارة والبهاء وفيض الزخارف والتفنّن في أدقّ الجزئيات.

والأمّة المسلمة قد رغبت، بعد أن اغتننت في تحقيق خيالاتها فأبدعت تلك القصور الساحرة التي يُخيّل إلى الناظر أنها مؤلّفة من تخاريم رخامية مرصّعة بالذهب والحجارة الكريمة.

ولم يكن لأمّة مثل تلك العجائب، لأنها وليدة جيل فتي مضى وخيال خصب ذوى، ولا يطمعن أحد في قيام مثّلها في الدور الحاضر المادّي الفاتر الذي دخل البشر فيه.

والفنون الصناعية شائعة بين المسلمين في كل مكان، وروشم (69) الفران والدلو والسكين مثلاً من الأشياء التي يصنعها المسلمون بروعة تدلّ على درجة اتّصاف أحقر صنّاعهم بالذوق الفنّي، والحقّ أنّ الفنّ مستقلّ عن تطبيقاته، ويمكن أن يتجلّى في أنفس الأدوات وأثمنها كما يمكن أن يتجلّى في أحطها. ومباني المسلمين أهمّ آثار المسلمين الفنّية.

والصور التي على النقود أو الصور غير القليلة التي على الآنية من الأدلة المفيدة على استعداد المسلمين للرسم، وعلى معرفتهم للتصوير.

ويظهر أن مصوّر ذلك الزمن كانوا من المتقنين لضروب فنّ المناظر، فاستطاعوا تصوير السّلم الذي روى المقرّيزي وجوده في أحد قصور القاهرة على شكل يُخيّل إلى الناظر معه أنه حقيقي.

ويحتوي كثير من المخطوطات الإسلامية على صور، ولاسيما المخطوطات الخاصة بالتاريخ الطبيعي وترويض الخيل، الخ. ولا يزال يوجد في المكتبات نسخ قديمة من مقامات الحريري زيّنها المسلمون بالصور.

ويعلم جميع زائري الحمراء أن سقف قاعة الحكم فيها يشمل على صور لمختلف الموضوعات، كمجلس أمراء من المسلمين وكمطاردة فارس مغربي لفارس نصراني مطاردة المنتصر.

### صناعة المعادن والحجارة الثمينة:

#### الصياغة وصناعة الحلي والترصيع والتكفيت:

تقدّم المسلمون كثيراً في الصناعة المعدنية، وبلغ إتقانهم لبعضها مبلغاً يصعب الوصول إلى مثله في زماننا، وكانت آنيّتهم وأسلحتهم مكفّّة بالفضّة ومموهة بالمينا المفرّض ومرصّعة بالحجارة الثمينة، وكان من تقدّم المسلمين استطاعتهم أن يصنعوا من مادة قاسية كالبلّور قطعاً كبيرة مغطاة بالصور والحكم مما يعسر صنعه ويغلو

69 — الروشم: لوح منقوش يختم به.

ثمنه في الزمن الحاضر، ومن ذلك الإبريق البلّوري الذي صنع في القرن العاشر من الميلاد فتجده في متحف اللوفر.

وتجلّت روح الإبداع الإسلامية على الخصوص في ترصيع المعادن الصالحة لصنع الأسلحة والآنية والأباريق وكفاف الموازين وأدوات المنازل وما إليها، وأطلق اسم الدمشقي على منهاج المسلمين مشتقاً من اسم المدينة (دمشق) التي زاولته على الخصوص، وكانت دمشق والموصل أهمّ مراكز هذه الصناعة، ولا تزال هذه الصناعة رائجة في دمشق، ولكن على شكل منحطّ، ويعود انحطاطها لا ريب إلى زمن تيمورلنك الذي استولى على دمشق في سنة 1399م، فساق جميع صانعي أسلحتها إلى سمرقند وخراسان.

### النقود والأوسمة:

روى المؤرخ المقرئ في رسالته عن النقود أن الخليفة الأموي عبد الملك هو أول من ضرب النقود الإسلامية، وكان المسلمون حتى السنة السادسة والستين من الهجرة (695 م) يستخدمون نقود الروم الذهبية والفضية أو يقلّدونها مع إضافة بعض الكلمات الإسلامية إليها كاسم الخليفة، وكالكلمات: (الحمد لله ولا إله إلا الله)، الخ.

وللنقود الإسلامية ثلاثة أنواع: الدينار، وهو من الذهب، والدرهم وهو من الفضة، والدانق وهو من النحاس.

### المصنوعات الخشبية:

وصل المسلمون في إتقان مصنوعاتهم الخشبية وترصيعها بالصدف والعاج إلى درجة تقضي بالعجب حقاً، واليوم لا تقلّد، إلا بثمن عال، تلك الأبواب العجيبة التي تُرى في بعض المساجد القديمة، وتلك المنابر ذات التقاطيع والتراسيع، وتلك السقوف ذات النقوش المتشابكة، وتلك المشربيات المخرّمة.

وكان المسلمون يتقنون صناعة حفر العاج إتقاناً نادراً أيضاً، كما تشهد بذلك

القطع الكثيرة النفيسة التي وصلت إلينا.

وهنا أذكر على العموم، وذلك في معرض البحث في صناعات المسلمين الخشبية والعاجية والمعدنية، ما يدل على مهارة المسلمين العجيبة، وذلك أنهم يصنعون أدقّ المصنوعات بأغلظ الآلات وأقلها عدداً.

وللفسيفساء نوعان عند المسلمين: فالنوع الأول هو ما كانوا يكسون به وجه الأرض وأسفل الجدر من قطع المرمر أو الخزف المطليّ الملون المختلف المقاييس، والنوع الثاني هو ما كانوا يكسون به الجدر، ولا سيما جدر المحاريب.

وتتألف من قطع الحجارة الملونة، وقطع الزجاج التي يسفر ضمّ بعضها إلى بعض عن صور، من مكعبات صغيرة يبلغ ضلع الواحد منها نحو سنتيمتر، ويشتمل كلّ صباغ فيها على ثلاثة ألوان، على العموم، صالحة لإحداث تمازج نور وانعكاسه، والمكعبات الحجرية ملونة في جملتها، والمكعبات الزجاجية المعدة لإحداث أساس ذهبي مذهبة في وجهها فقط.

### صناعة الزجاج:

زاولت جميع الأمم الشرقية، ولا سيما الفرس والمصريون، صناعة الزجاج. ولم يلبث المسلمون أن تقدموا في صناعة الزجاج تقدماً عظيماً، كما يشهد بذلك ما انتهى إلينا من أوانيهم المذهبة والمطلية بالمينا.

### الصناعة الخزفية:

استعمال الخزف المطلي بالمينا الملون قديم جداً. وما اتفق للمسلمين في فنّ العمارة بسرعة اتفق لهم مثله في صناعة الخزف، وقد استطاع المسلمون، بعد أن اقتبسوا من الأمم الأخرى طرق صنع الخزف الفنيّة، أن يبتدعوا منه، في بلاد الأندلس على الخصوص، قطعاً مبتكرة رائعة متقنة لم يسبقهم إليها أحد كمالاً. وللمصنوعات الإيطالية، التي عرفت مؤخراً بالمصنوعات الماجوليكية، تشابهاً للمصنوعات الإسلامية يستوقف النظر، وإن في اشتقاق كلمة (ماجوليكية) لا ريب من



(ميورقة) التي كان فيها مصنع إسلامي مهم لصنع الخزف المطلي بالمينا دليلاً على أن طرق الإيطاليين في صنعه مقتبسة من المسلمين. ولما تمّ إجلاء المسلمين عن أسبانيا هبطت فيها صناعة القاشاني وجميع الصناعات إلى الحضيض بسرعة. وتشتمل المتاحف الأوربية على كثير من الأواني الخزفية التي صنعت تقليداً لأواني مسلمي الأندلس ويسهل تبيّن هذا التقليد بما فيها من قطع الكتابات العربية الممزوجة بالزخارف. وبقي علينا أن ندرس فن عمارة المسلمين وبهذا نختم بحثنا في الآثار العجيبة التي أبدعها أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) والتي هي فتانة غالباً، مبتكرة دائماً.

## الفصل الثاني عشر

### تجارة المسلمين وصلاتهم بمختلف الأمم

#### 1. صلات المسلمين بالهند

لم يكن نشاط المسلمين التجاري أقلّ من نشاطهم في العلوم والفنون والصناعة، فقد كان للمسلمين في الوقت الذي كانت أوربا فيه تشكّ في وجود بلاد الشرق الأقصى ولا تعرف من أفريقيا سوى بعض شواطئها — علائق تجارية بالهند والصين وأفريقيا الداخلية وبأقسام أوربا النائية كروسيا وإسوج والدانمرك. وترجع صلات المسلمين الأولى ببلاد الهند إلى أقدم عصور التاريخ. ولسرعان ما اتّسع أفق صلات المسلمين التجارية بعد أن أصبح سلطانهم ثابت الأساس، فلم يلبث المسلمون أن وصلوا إلى شواطئ كورميندل وملبار وسومطرة وجزائر الأرخبيل الكبرى وقطعوا خليج سيام وبلغوا جنوب بلاد الصين. وكان المسلمون يتصلون ببلاد الهند بثلاث طرق أساسية: إحداها بريّة واثنان منها بحريتان، وكانت الطريق البرية تصل أهمّ مراكز الشرق، كسمرقند ودمشق وبغداد، الخ بالهند بواسطة القوافل مارّة ببلاد فارس وكشمير، وكان التجار الذين

يفضّلون الطريق البحرية يأتون من بلاد الهند إلى موانئ الخليج الفارسي كميناء سيراف، أو كانوا يدورون حول بلاد العرب ويبلغون موانئ البحر الأحمر، ولا سيما عدن.

## 2. صلات المسلمين بالصين

ترجع صلات العرب غير المباشرة بالصين، بواسطة الهنود، إلى ما هو أقدم من ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بزمان طويل، ولكن صلاتهم المباشرة بها لم تحدث إلا بعد أن أقاموا دولتهم.

وكان المسلمون يقومون برحلات متواصلة إلى بلاد الصين، ومن أقدمها الرحلة التي تكلمنا عنها في فصل آخر حيث ذكرنا أن التاجر سليمان هو الذي قام بها في سنة 850م، ومما يثبت كثرة صلات المسلمين بأهل الصين ما كان من تبادل الوفود بين الخلفاء السابقين وملوك الصين فضلاً عما هو مسطور في سجلات بيت مال الخلفاء من بيان للسلع الصينية.

ويمكننا، عند فقدان الأنباء عن صلات المسلمين بالصين وجهل علاقات الخلفاء بملوكها، أن نستدل على سعة صلات المسلمين التجارية بأهل الصين من وجود عشرين مليون مسلم منتشرين في أجزاء مملكة ابن السماء ومن وجود مائة ألف مسلم وأحد عشر مسجداً في مدينة بكين وحدها (70).

## 3. صلات المسلمين بأفريقيا

كانت صلات المسلمين بأفريقيا على جانب عظيم من الأهمية أيضاً وكان المسلمون يعرفون جيداً أصقاع أفريقيا الوسطى التي يصل إليها روادنا في الوقت الحاضر بشقّ الأنفس، فيعدّ كل ارتياد لها حادثاً مهماً في أوروبا.

ويدلّ إسلام أمم تلك الأصقاع التي يزورها تجار المسلمين على مقدرة المسلمين في حمل الأمم على الترحيب بهم، ويجد السياح أثراً لتأثير المسلمين في أكثر البقاع التي يدخلونها في الوقت الحاضر، وعندي أنه يجدر بالسياح المعاصرين الذين

يرغبون في درس شؤون أفريقيا درساً مفصلاً من غير أن يرهقوا ميزانية دولتهم، وفي الاغتناء عند الاقتضاء، أن يحذوا حذو المسلمين في ارتيادهم، أي في تنظيمهم للقوافل التجارية، فالنجاح أضمن، على العموم، في حمل أية أمة على قبول فريق من الناس قبولاً حسناً عن طريق المقايضة التجارية، من اجتياز هذا الفريق لأراضيها بغير هدف ظاهر، ومبادرتها للعدوان برصاص البنادق عند سوء الظن.

قال مسيو سيدبّو:

(يصل المسلمون من شواطئ أفريقيا إلى مضيق باب المندب ثم إلى زنجبار وإلى بلاد الكاب، ويؤسسون برافا ومنباسة وكيلوة حيث يعتزل أخٌ لأمير شيراز، وموزنبق وصوفالا وميلندة ومغادوكسو، ويستولون على الجزر القريبة من الشواطئ وعلى مراكز كثيرة في مدغشقر... ولم يكن أقلّ من هذا تأثير القرآن في أفريقيا الوسطى التي لا تزال غير معلومة لدينا، وكان ما أقامه المسلمون من الممتلكات في الساحل الشرقي يسهّل عليهم الولوج داخل أفريقيا من هذه الناحية، وكان المسلمون يزورون بلاد الصومال الوديعة المقرأة، فتؤلّف، مع سوقطرة، مستودعاً تجارياً مهماً جداً وكانوا يزورون بلاد الحبشة وسنار وكردفان التي لها علاقات دائمة بمصر فتعدّ المفتاح الحقيقي لدارفور والوادي، وكانوا يذهبون من طرابلس الغرب إلى فزان، وكانت قوافلهم تذهب من بلاد المغرب موعلةً في الصحراء الكبرى غير خائفة من المغامرة في رمالها التي تمتد من ضفاف النيل إلى المحيط الأطلسي والتي تبلغ مساحتها نحو مائتي ألف فرسخ مربع، وغير خائفة من الانتشار في بلاد السودان والحق أن المسلمين خطّوا طريقهم بين سكان أفريقيا بحروف لا تمحى، والحق أن جميع السياح المعاصرين أجمعوا على الإشادة بما نجم عن هذا من الإصلاح في تكوين هؤلاء السكان بدناً وخلقاً وعقلاً).

#### 4. صلات المسلمين بأوروبا

كانت لأوروبا علائق بالمسلمين مدةً طويلة، وأقام المسلمون بجنوب فرنسا عدّة قرون، وكان لا بدّ لهم من إيجاد صلات فيما وراء جبال البرنات، غير أنهم كانوا يفضلون أن تقصد بعثاتهم التجارية سواحل البحر المتوسط على الخصوص، وأن

يتصلوا فيها بأمم تجارية مهذّبة أكثر من التي كانت تقطن بفرنسا أيام سلطانهم في أسبانيا.

وكان المسلمون سادة البحر المتوسط، وكانوا يرسلون إلى جميع الموانئ الأوربية والأفريقية المحيطة بهم منتجاتهم الصناعية والزراعية، ولا نرى أي أثر لصلات المسلمين التجارية بشمال أوربا في كتب التاريخ القديمة التي انتهت إلينا، ولكن الوثائق التي هي أدق من كتب التاريخ تثبت وجود تلك الصلات وتدلّ على تاريخ بداياتها ونهايتها فضلاً عن الطرق التي كانوا يسلكونها، وتتألف هذه الوثائق من نقود تركها المسلمون في الطرق التي كانوا يمرّون منها، فتكشف أعمال الحفر الحديثة عنها في كل يوم.

وتثبت الكتابات الكوفية التي وجدت في روسيا أنه كان للمسلمين مستعمرات عند الخزر والبلغار هنالك، وتدل تواريخ النقود التي وجدت في روسيا، من مصبّ نهر الفلغا إلى شواطئ البحر البلطي، على أن بدء تلك التجارة الإسلامية كان في عهد الخلفاء الأولين وأن ختامها لم يجاوز أواخر القرن الحادي عشر من الميلاد، ولذا تكون قد دامت نحو أربعة قرون.

وآخر تاريخ لتلك النقود التي وجدت هو سنة 1040م، وبنو العباس هم أكثر من ذكر فيها من أولياء الأمور بآسيا.

### الفصل الثالث عشر

#### تمدين المسلمين لأوربا وتأثيرهم في الشرق والغرب

##### 1. تأثير المسلمين في الشرق

خضع الشرق لكثير من الشعوب، كالفرس والأغارقة والرومان، الخ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسي إذا كان عظيماً دائماً فإن تأثيرها المدني كان ضعيفاً عموماً، وما عجز الأغارقة والفرس والرومان عنه في الشرق قدر عليه المسلمون بسرعة ومن غير إكراه، ومن ذلك أن مصر، التي كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعاناً

للمؤثرات الأجنبية، نسيت في أقل من قرن واحد مرّ على افتتاح المسلمين لها، ماضي حضارتها الذي دام نحو سبعة آلاف سنة معتقّة ديناً جديداً ولغة جديدة وفناً جديداً اعتقاداً متيناً بعد توارى الأمة التي حملتها عليه.

ولم يغير المصريون دينهم سوى مرة واحدة قبل المسلمين، وذلك حين خرب قياصرة القسطنطينية بلاد مصر بتخطيطهم جميع آثارها أو تشويهها وجعلهم القتل عقوبة من يخالف حظر عبادة آلهتها الأقدمين، وهكذا عانى المصريون ديناً جديداً فرض عليهم بالقوة أكثر من اعتناقهم له، وما كان من تهافت المصريين على نبذ النصرانية ودخولهم في الإسلام يثبت درجة ضعف تأثير النصرانية فيهم.

وما وفق المسلمون له في مصر من التأثير البالغ اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم كأفريقيا وسورية وبلاد فارس، الخ، وبلغ نفوذهم بلاد الهند التي لم يدخلوها إلا عابري سبيل، وبلغ بلاد الصين التي لم يزوروها إلا تجاراً.

ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالمسلمين، وذلك أن جميع الأمم التي اتصل المسلمون بها اعتنقت حضارتهم، ولو حيناً من الزمن، وأن المسلمين العرب لما غابوا عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم كالترك والمغول الخ، تقاليدهم وبدأوا للعالم ناشرين لنفوذهم، أجل، ماتت حضارة المسلمين العرب منذ قرون، ولكن العالم لا يعرف اليوم غير دين أتباع النبي (صلّى الله عليه وآله) ولغتهم في البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي إلى السند، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء.

ولم يتجلّ تأثير المسلمين في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها، بل تجلّى في ثقافته العلمية أيضاً، ومن ذلك أن المسلمين كانوا ذوي صلات مستمرة بالهند والصين وأنهم نقلوا إليهما قسماً كبيراً من المعارف العلمية التي عدّها الأوروبيون من أصل هندوسي أو صيني فيما بعد، وقد أصاب سيديّو في توكيد هذا الأمر فذكر على سبيل المثال: أن المسلم البيروني المتوفى سنة 1031م أتحف الهندوس، في أثناء سياحته في بلادهم، بمختارات مهمة من كتب العلم فنقلوها بعدئذ نظماً إلى السنسكريتية على حسن عادتهم.

## 2. تأثير المسلمين في الغرب

تأثير المسلمين العلمي والأدبي: نثبت الآن أن تأثير المسلمين في الغرب عظيم أيضاً، وأن أوروبا مدينة للمسلمين بحضارتها، والحق أن تأثير المسلمين في الغرب ليس أقل منه في الشرق، ولكن بمعنى آخر، فأما تأثيرهم في الشرق فتراه بادياً في أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص وأما تأثيرهم الديني في الغرب فتراه صغراً وتري تأثيرهم الفني واللغوي ضعيفاً، وتري تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي فيه عظيماً.

ولا يمكن إدراك أهمية شأن المسلمين في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما أدخلوا الحضارة إليها.

وإذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في أسبانيا ساطعة جداً، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة.

ودامت همجية أوروبا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر المسلمين الذين كانوا أئمة وحدهم.

ولم تكن الحروب الصليبية سبباً في إدخال العلوم إلى أوروبا كما يُردّد على العموم، وإنما دخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا، وذلك أن مكثاً للمترجمين في طليطلة بدأ، منذ سنة 1130م ينقل أهم كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية تحت رعاية رئيس الأساقفة ريمون، وأن أعماله في الترجمة كللت بالنجاح ما بدا للمسلمين بها عالم جديد، ولم يتوان الغرب في أمر هذه الترجمة في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد، ولم يقتصر الغرب

على ترجمة مؤلفات علماء المسلمين، كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد، الخ. إلى اللغة اللاتينية، بل نقلت إليها أيضاً، كتب علماء اليونان التي كان المسلمون قد ترجموها إلى لغتهم الخاصة ككتب جالينوس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس وبطليموس، فزاد عدد ما ترجم من كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب كما روى الدكتور لوكلير في كتابه (تاريخ الطب العربي).

والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب ابولونيوس في المخروطات وشروح جالينوس في الأمراض السارية ورسالة أرسطو في الحجارة، الخ. وأنه إذا كانت هنالك أمة نقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالمسلمون هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للمسلمين بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً، قال مسيو ليثبري:

(لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا في الآداب عدة قرون).

ومسلمو الأندلس وحدهم، هم الذين صنعوا في القرن العاشر من الميلاد، وذلك في تلك الزاوية الصغيرة من الغرب، العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان، حتى في القسطنطينية، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس الإسلامية، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً، وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التي هي موضوع جدال من غير أن يثبت عدم صحتها، جربت الذي صار بابا في سنة 999م باسم سلفستر الثاني، والذي أرد أن ينشر في أوربا ما تعلمه فعدّ الناس عمله من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه للشيطان.

ولم يظهر في أوربا، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد، عالم لم يقتصر على

استنساخ كتب المسلمين، وعلى كتب المسلمين وحدها عول روجر بيكن وليونارد البيزي وأرنود الفيلنوفي وريمون لول وسان توما والبرت الكبير والأذفونس العاشر القشتالي، الخ. قال مسيو رينان:

(إن البرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء وإن سان توما مدينٌ في جميع فلسفته لابن رشد).

وظلت ترجمات كتب المسلمين، ولا سيما الكتب العلمية، مصدراً وحيداً، تقريباً، للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول إن تأثير المسلمين في بعض العلوم، كعلم الطب مثلاً، دام إلى أيامنا، فقد شرحت كتب ابن سينا في موتبلية في أواخر القرن الماضي.

وبلغ تأثير المسلمين في جامعات أوروبا من الاتساع ما شمل معه بعض المعارف التي لم يحققوا فيها تقدماً مهماً كالفلسفة مثلاً، فكان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، ولما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة 1473م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف المسلم ومذهب أرسطو.

ولم يكن نفوذ المسلمين في جامعات إيطاليا، ولا سيما جامعة بادو، أقلّ منه في فرنسا فقد كان للمسلمين فيها شأن كالذي بدا للأغارقة واللاتين بعد عصر النهضة. ويمكن القول بأن التسامح الديني كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة المسلمين، وقد أوردنا على هذا غير دليل، ولا نسهب فيه، وإنما نشير إلى ما ترجمه (مسيو دوزي) من قصة أحد علماء الكلام المسلمين الذي كان يُلقى ببغداد دروساً كثيرة في الفلسفة يشترك فيها أناس من اليهود والزندقة والمجوس والمسلمين والنصارى الخ. فيستمع إلى كل واحد منهم باحترام عظيم، ولا يطلب منه إلا أن يستند إلى الأدلة الصادرة عن العقل، لا إلى الأدلة المأخوذة من أيّ كتاب ديني كان، فتسامح مثل هذا هو مما لم تصل إليه أوروبا بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة وما عانتها من الأحقاد المتأصلة وما منيت به من المذابح الدامية.

وإذا كان تأثير المسلمين عظيماً في نواحي أوروبا التي لم يسيطروا عليها إلا



بمؤلفاتهم أبصرنا أنه كان أعظم من هذا في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا التي نرى أن أفضل وسيلة لتقدير تأثير المسلمين فيها تقديراً قاطعاً هو أن ننظر إلى حالتها التي كانت عليها قبل فتحهم إياها وفي أثناء سيادتهم لها وبعد إجلائهم عنها، فأما حالها قبل الفتح الإسلامي وفي أيام سلطتهم فقد بحثنا فيها، وذكرنا درجة السعادة التي تمت لها في زمن دولتهم، وأما حالها بعد المسلمين فقد تكلمنا عنها أيضاً، وستتاح لنا العودة إليها حينما نبحث في ورثة المسلمين عما قليل، فهناك نرى أنها هبطت بعد إجلائهم إلى دركة من الانحطاط لم تنهض منها حتى الآن، ولم يجد الباحث مثلاً أوضح من هذا لتأثير أمة في أمة أخرى، والتاريخ لم يشتمل على ما هو أبرز من هذا المثال.

ومما تقدّم ننتهي إلى أن فضل الشرق في تأثيره في الغرب يعود إلى المسلمين وحدهم وأما الشعوب التي حلت محل المسلمين، وإن اتفق لها شيء من التأثير السياسي أو الديني، لم يكن تأثيرها العلمي والأدبي والفلسفي في غير درجة الصفر. وللمسلمين لا ريب، تأثير في فنون أوروبا، ولا سيما في فنّ عمارتها، وأن الغرب اقتبس أصول فنّ عمارته من المسلمين، أجل، قد يرى أن تأثير المسلمين في أسبانيا زال تماماً، ولكن بعض المدن الإسبانية، ولا سيما أشبيلية، حافلة بذكرات المسلمين، ولا تزال بيوتها تبنى على الطراز الإسلامي.

أجل، يمكن أن تباد أمة وأن تحرق كتبها وأن تهدم آثارها، ولكن تأثيرها يكون أقوى من القلّز (71) غالباً، ولا يستطيع الإنسان محوه، ولا تكاد العصور تقدر عليه.

### تأثير المسلمين في الطبائع

لا نعود إلى ما فصلناه في فصل سابق عن تأثير المسلمين الخلقي في أوروبا، وإنما نذكر أننا أثبتنا فيه الفرق العظيم بين سنيورات النصارى وأشياح النبي (صلى الله عليه وآله) في ذلك الزمن، وأن النصارى تخلّصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم

71 - القلّز: النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

بالمسلمين واقتباسهم منهم مبادئ فروسيتهم وما تؤدي إليه هذه المبادئ من الالتزامات، كمراعاة النساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود الخ، ونذكر أننا بينما في فصلنا عن الحروب الصليبية أن أوروبا النصرانية كانت دون الشرق الإسلامي أخلاقاً بمراحل، فإذا كان للديانات ما يسند إليها، وما نجادل فيه، من التأثير في الطبائع على العموم أمكنت المقابلة بين الإسلام والأديان الأخرى التي تزعم أنها أفضل منه على الخصوص، انظر إلى العلامة المتدين مسيو بارتلمي سنت هيلر في كتابه عن القرآن حيث قال:

(أسفرت تجارة المسلمين وتقليدهم عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة في القرون الوسطى، وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها).

وقد يسأل القارئ بعد ما تقدم: لم ينكر تأثير المسلمين علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما ندّعي.

فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأجداد وكانت خلاصةً لماض طويل، والشخصية غير الشاعرة وحدها، ووحدتها فقط، هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة، وتملي عليهم آراءهم، فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حراً في الظاهر فيحترم.

والحق أن اتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) ظلّوا أشدّ من عرفتهم أوروبا من الأعداء ارهاباً عدّة قرون، وأنهم عندما كانوا لا يرددوننا بأسلحتهم، كما في زمن شارل مارنل والحروب الصليبية، أو يهددون أوروبا بعد فتح القسطنطينية، كانوا يذلّونا بأفضلية حضارتهم الساحقة، وأننا لم نتحرّر من نفوذهم إلا بالأمس.

وتراكمت موروثاتنا ضدّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة وصارت جزءاً من مزاجنا، وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحياناً

والعميق دائماً.

وإذا أضفنا إلى موروثاتنا ضد المسلمين الموروث الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة أن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي أدركنا، بسهولة سرّ جحودنا العام لتأثير المسلمين العظيم في تاريخ حضارة أوروبا.

ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يرى أن أوروبا النصرانية مدينة لأولئك الكافرين في خروجها من دور التوحش، فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة. نختم هذا الفصل بقولنا: أنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم، وأن المسلمين هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخُلقي، وأن المسلمين هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا ممدّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون.

### الفصل الرابع عشر

#### الحضارة الإسلامية من الرقي إلى الانحطاط

##### ورثة المسلمين في الأندلس

لم يفكر النصارى، بعد أن استردوا (غرناطة) التي كانت معقل الإسلام الأخير في أوروبا، في السير على سنّة المسلمين في التسامح الذي رأوه منهم عدّة قرون، بل أخذوا يضطهدون المسلمين بقسوة عظيمة على الرغم من العهود، ولكنهم لم يعزموا على طردهم جميعهم إلا بعد مرور قرن، ومع ما كان يصيب المسلمين من الاضطهاد كان تفوقهم الثقافي على الإسبان عاملاً في بقائهم على رأس جميع الصناعات.

وبدا الاكليروس متطرفاً فأشار بقتلهم جميعاً رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً، وسلك فليب الثاني طريقاً وسطاً فاكتفى بإعلان طردهم في سنة 1610م، ولكنه أمر بأن يقتل أكثرهم قبل أن يوفّقوا لترك أسبانيا، فقتل ثلاثة أرباعهم تقريباً.

وتم الجلاء والذبح، وعمّ الفرح أسبانيا لما ظُنّ من دخولها عهداً جديداً. حقاً لقد ظهر عهدٌ جديد ما وجدت نتائج عظيمة لهذا الاستئصال الجامع الذي لا نظير له في التاريخ، ويكون تقديرنا لأهمية هذه النتائج أتمّ إذا ما رجعنا بعض السنين إلى الخلف وبحثنا في أمر أسبانيا بعد اختفاء سلطان المسلمين السياسي عنها. رأى النصارى، الذين هاجروا إلى المناطق الجبلية فراراً من سلطان المسلمين، إمكان إعادة دولتهم القديمة بعدما شاهدوا بدء تضعُّع سلطان المسلمين في الأندلس بفعل تنافسهم وحروبهم الداخلية ولم تكَلّ أعمال هؤلاء النصارى بالنجاح في البداية ولكنهم لم يهنوا لما كان يغلي في عروقهم من الحميّة الدينية، وقد صار لهم ما للمسلمين من الخبرة الحربية بفضل الوقائع التي اشتركوا فيها عدّة قرون ما دام القتال مهنتهم الوحيدة، وقد ساعدهم انقسام المسلمين على النجاح فاستطاعوا، بعد حروب طويلة، أن يقيموا دويلات لم تفتأ تعظم وتتحد حتى استولت بعد ثمانية قرون على غرناطة التي كانت عاصمة آخر دولة إسلامية في الأندلس، وبهذا أضحت جميع أسبانيا في قبضتها، وبدأت أسبانيا أول دولة حربية في أوروبا.

ولم يكن الملك شارلكن وفليب الثاني أقلّ براعةً من سلفهما فرديناند، وكان القرن الذي مر بين سقوط غرناطة ووفاة فليب الثاني دور عظمة لإسبانية لن ترى مثله. أجل، كان المسلمون يُضطهدون في جميع ذلك العهد، ولكن مع بقائهم، وكان المسلمون ذوي شأن فيه بما لهم من التفوق الثقافي، وكان العلماء وأرباب الصناعات والتجار من المسلمين وحدهم، لا من الأسبان الذين كانوا ينظرون إلى كلّ مهنة شزراً، خلا مهنة الاكليروس ومهنة الجنديّة.

وكانت أسبانيا تشتمل، إذن، على جيلين مختلفين من الأدّميّين عاملين بمختلف الطرق على عظمتها، أحدهما من النصارى القابضين على زمام السلطة العسكرية، والآخر من المسلمين القابضين على ناحية الحضارة المادية.

وكان وجود هذين الجيلين أمراً ضرورياً، وذلك أن السلطة العسكرية إذا كانت كافية لإقامة دولة فإنها تعجز وحدها عن إدامتها، وأن ازدهار هذه الدولة لا يكون إلا بتوافر بعض عناصر الحضارة، وأن تماسك هذه الدولة لا يدوم طويلاً إلا ببقاء

هذه العناصر.

وهذا هو عين ما أصاب أسبانيا بعد طرد المسلمين، فقد حلّ الانحطاط فيها محلّ العظمة، وقد زاد انحطاطها سرعةً ما عطلت من قادة عظام حربيين كالذين ظهروا في قرن واحد، وقد أضاعت كل شيء حين خسرت سلطانها الحربي وحرمت الحضارة معاً.

وكان من سرعة الانحطاط الذي عقب إجلاء المسلمين وقتلهم ما يمكننا أن نقول معه أن التاريخ لم يرو خبر أمة كالأسبان هبطت إلى دركة عميقة في وقت قصير جداً، فقد توارت العلوم والفنون والزراعة والصناعة، وكل ما هو ضروري لعظمة الأمم، عن بلاد أسبانيا على عجل، وقد أغلقت أبواب مصانعها الكبرى وأهملت زراعة أراضيها وصارت أريافها بلاقع، وبما أن المدن لا تزدهر بغير صناعة ولا زراعة فقد خلت المدن الإسبانية من السكان على شكل سريع مخيف، وأصبح عدد سكان مدريد مائتي ألف بعد أن كان أربعمئة ألف، وصارت إشبيلية، التي كانت تحتوي 1.600 حرفة كافية لإعاشة 130.000 شخص، لا تشمل على غير 300 حرفة، وهذا فضلاً عن خلوها من ثلاثة أرباع سكانها كما جاء في رسالة مجلس الكورتس إلى الملك فليب الرابع، ولم يبق في طليطلة سوى ثلاثة عشر مصنعا للصوف بعد أن كان فيها خمسون، وخسرت طليطلة جميع مصانعها الحريرية التي كان يعيش منها أربعون ألف شخص، ووقع مثل هذا في كل مكان، ولم تلبث المدن الكبيرة، كقرطبة وشقوبية وبرغش، أن أصبحت كالصحاري تقريباً، وزال ما ظل قائماً فيها من المصانع القليلة بعد توارى المسلمين، وكان من غياب جميع الصناعات في أسبانيا أن اضطر القوم إلى جلب عمال من هولندا عندما أريد إنشاء مصنع للصوف في شقوبية في أوائل القرن الثامن عشر.

وقضت محاكم التفتيش على كل من يزيد ذكاؤه قليلاً على المستوى المتوسط، فصرت لا ترى فيها سكاناً وعادت لا تحتوي رجالاً.

وأجمع كتاب العصر الذين زاروا أسبانيا على الاعتراف بضعف مستوى الإسبان الثقافي، وكان هذا الضعف عميقاً عاماً في أواخر القرن السابع عشر من الميلاد،

وبدت تلك البلاد التي أضاعت العالم أيام سلطان المسلمين خالية من أية مدرسة لتعليم الفيزياء والرياضيات والطبيعات، وصرت لا ترى فيها كلها، حتى سنة 1776م، كيمالوياً قادراً على صنع أبسط التراكيب الكيماوية، ولا شخصاً قادراً على إنشاء مركب أو سفينة شراعية، وذلك كما قال الكاتب الإسباني كنبومانس مؤكداً.

ولا مرأ في نجاح محاكم التفتيش المرهوبة في أعمالها، فقد أضحت جميع بلاد أسبانيا لا تعرف غير كتب العباداة، ولا تعرف عملاً غير الأمور الدينية، جاهلة ما أتاه نيوتن وهارفي وغيرهما من الاكتشافات العظيمة جهلاً تاماً.

ولم يسمع أطباء الأسبان شيئاً عن الدورة الدموية إلى ما بعد اكتشافها بقرن ونصف قرن، ويمكن استجلاء مستوى معارفهم بالأمر الغريب القائل أن بعض الناس، في سنة 1760م، اقترحوا مع التواضع، إزالة الأقدام التي كانت تملأ شوارع مدريد وتفسد هواءها، وأن رجال الصحة احتجوا على ذلك بشدة ذاكرين أن آباءهم العقلاء كانوا يعرفون ما يصنعون، وأنه يمكن للسكان أن يعيشوا مثلهم بين الأقدام، وأن رفعها ينطوي على تجربة لا يقدر أحدٌ على كشف عواقبها.

ولم تستطع أطيب الجهود أن تنهض ببلاد أسبانيا التعسة، فالיום لا تجد فيها زراعة ولا صناعة، واليوم تستعين بالأجانب في كل ما يحتاج إلى استعداد يزيد على أدنى مستوى، واليوم يدير الأجانب مصانعها، ويمدّون خطوطها الحديدية، ويمدّونها بمن يسوق قاطراتها وبكل ما له علاقة بالعلوم والصناعات.

وبلاد هذه حالها تعدّ من البلاد التي تقدر على معالجة أمورها أية حكومة قديرة حرة أو غير حرة، وذلك أن الحكم لا يمكن بغير موافقة الجمهور، وأن الجمهور الأسباني دون حكومته دائماً مهما كانت هذه الحكومة قليلة الرقي، أجل، تتمتع أسبانيا بمظاهر الحضارة، ولكن هذا لا يعدو حدّ المظاهر، فالجهل عامٌ فيها كما كان في القرون الوسطى.

### ورثة المسلمين في مصر والشرق

الترك هم ورثة المسلمين الأوائل في مصر وقسم كبير من الشرق كما هو معلوم.

وإذا ما نظر المرء إلى الترك من الناحية السياسية، أدرك أنه كان لهم دورٌ كبير من العظمة، فقد ارتعدت فرائص أقوى ملوك أوربا، زمنًا طويلاً، خوفاً من سلاطينهم الذين قاموا مقام القياصرة وأحلّوا الهلال محلّ الصليب الإغريقي فوق أياصوفية وبسطوا نفوذ الإسلام في الآفاق.

بيد أن عظمة الترك لم تكن في غير الحرب، فالترك، وإن استطاعوا أن يؤسسوا دولةً كبيرةً، أثبتوا عجزهم عن إبداع حضارة في كل زمن، وكان أقصى جهودهم أن يستفيدوا مما أصبح تحت أيديهم من علوم المسلمين الأولين وفنونهم وصناعاتهم وتجارتهم، ولم يقدر الترك أن يتقدموا خطوة واحدة في هذه المعارف التي ازدهرت أيام سلطان المسلمين الأولين، والأمم، إذ كانت ترجع إلى الوراء حتماً إذا لم تتقدم، ولم تلبث ساعة انحطاط الترك أن دقت.

وترجع نهاية تاريخ حضارة المسلمين الأولين في الشرق إلى اليوم الذي صارت مقادير دولتهم في قبضة الترك بالقوة، وكان الانحطاط عميقاً في مصر على الخصوص، وبدأ هذا الانحطاط عندما جعلت انتصارات السلطان سليم منها ولاية من الدولة العثمانية، فقد أخذت الفنون والعلوم والصناعات تنطفئ فيها شيئاً فشيئاً.

وكان يدير مصر في العهد العثماني ولاية متقلّبون لا يفكرين في غير الاغتناء بسرعة، ولم تلبث مصر أن وقعت في ضنك العيش كبقية الولايات العثمانية التابعة للأستانة، وزال رونقها القديم عنها، وصارت لا تقام فيها عمارة جديدة، وأضحت مبانيها القديمة مهملة ولم يبق منها غير ما سمح به الدهر.

ولا يستنتج القارئ مما تقدم أن أهل تركية أحط من سكان أوربا، فتركية تشمل، بالحقيقة، على ذلك التضاد الغريب الذي أعجب من أنني لم أراه في مكان آخر، أي أنها ذات سكان لهم صفات من الطراز الأول مع أن طبقاتها القائدة أدنى من هؤلاء السكان بمراحل خلافاً لما في الغرب، وأن فلاحي الترك وعمالهم زهادّ صابرون على الأعمال أوفياء لأسرهم، ذوو نشاط محتملون لجور حكومة فاسدة احتمالاً فلسفياً، ويرجّح الجندي التركي الموت في مكانه على الهزيمة، وهو لا يقبض راتباً، وهو لا يلبس سوى الثياب الرثة، ويتألف طعامه من الخبز والماء، وقد قال لي أحد

القادة الحربيين، الذين رأوا جنود الترك عن كثب، إنك لا تجد في أوربا جيشاً يستطيع العيش يوماً واحداً في مثل تلك الأحوال، وقد يكون الترك خير جنود أوربا مع أنهم أسوأ الجنود قيادةً.

### ورثة المسلمين الأخيرون في مصر:

ليست مصر تابعةً لسلطان الترك في الوقت الحاضر، وقد وقعت بين يدي إنكلترا القوية التجارية، ويمكن من اطلعوا على البؤس الشديد الذي شمل بلاد الهند منذ سيطرة الإنكليز عليها أن يبصروا المصير الذي ينتظر مصر السيئة الحظ، ومما ذكرته في فصل سابق مقدار الضنك الذي أصاب فلاحى مصر منذ سنين بفعل مضاربين من الأوربيين، ولكن هذا الضنك يعدّ أمراً ذهبياً عند قياسه بما ينتظرهم، فسيرون أنفسهم محاطين، كالهنود، بطرق منظمة مخيفة هائلة ساحقة عاصرة ممتصة لا تبقي ولا تذر.

ويظهر أن مصير المباني الإسلامية، القديمة التي لا تزال قائمة في القاهرة، سيكون كمصير أمثالها في بلاد الهند، أي أن تزول بسرعة، وأن تحلّ محلّها تكن للجيش أو ما يماثلها، وهاهي ذي الأعمال التي هي من هذا القبيل تسير سيراً يدلّ على أنها لا تطول في عهد السادة الجدد، وعلى القارئ أن يطالع مقالات مسيو دورونه (المرافق لبعثة الآثار في القاهرة) الممتعة ليطلع على أعمال التخريب التي تقترب في الوقت الحاضر اقترافاً لا يصدّقه العقل، وليعلم أن أنفس الآثار التي لا تقلد تهدم بحجة فتح الشوارع وبناء النكن(72).

72 — فعلى هواة الفن الذين يرغبون أن يشاهدوا في القاهرة كنوز فن العمارة، التي هي وليدة حضارة المسلمين في ألف سنة، أن يسرعوا، فقد لا يمضي زمن قصير حتى تكون قد زالت وأحلّ التجار (الذين يحتقرونها لعدم فائدتها ولأنها من صنع أمة أخرى ولرغبتهم في إمتاع المصريين بنعم الحضارة) محلها تكتناً جميلة وكنايس بروتستانية طريفة، ومخازن لبيع الكتاب المقدس والمسكرات كثيرة، وبيوتاً لجموع القساوسة والمبشرين متنوعة.



### ورثة المسلمين الأوائل في الهند

المغول هم ورثة المسلمين الأوائل في الهند، والمغول قد ورثوا من حضارة المسلمين الأوائل، وهم وإن لم يقدروا على إنماء هذه الحضارة، استطاعوا أن ينتفعوا بها على الأقل، فتمتعت بلاد الهند الواسعة في أيامهم بالرخاء والغنى.

والإنكليز هم ورثة المغول في الهند، والإنكليز قد مدّنوها، أي أنشأوا فيها الطرق والخطوط الحديدية التي يسهل عليهم أن يستغلوها بها، ولكنه نجم عن هذه الحضارة أن غرقت بلاد الهند في بحر من البؤس لم تر بقعة من بقاع الدنيا مثله.

والإنكليز عملّيون على خلاف الأسبان الذين طردوا المسلمين، فهم بدلاً من أن يفكّروا في إجلاء الهنود رأوا من الحكمة أن يستغلّوهم بانتظام، ونحن إذا ما نظرنا إلى الأمر من الناحية التجارية فرأينا بضعة آلاف من التجار يسوقون مئات الملايين من البشر إلى العمل في سبيلهم بأساليب أشدّ من الاسترقاق ألف مرة، لم يسعنا إلا الإعجاب بهم، ويكون حكمنا غير ذلك إذا ما بحثنا في الأمر من الناحية الإنسانية.

نشأ عن طريقة الإنكليز الاستعمارية الدقيقة اغتناء الجزر البريطانية اغتناءً لا حدّ له وفقر أولئك الهنود المسخّرين المساكين فقراً مطلقاً تقريباً، فقال مسيو غراند يديه، مبيّناً نظام نزع الملكية لعدم دفع الضرائب النافع، وذلك بعد أن ذكر أن طبقة الفلاحين التي كانت في عهد الملوك المحليين تؤدي سدس المحاصيل الزراعية ضرائب صارت تؤدي نصفها في عهد الإنكليز: (إن هذا النظام أنزل طبقة الزرّاع إلى الدرك الأسفل من الانحطاط).

وحديثاً درس أحد كتاب الإنكليز، مستر هندمان، حالة الهند في العهد الإنكليزي فأثبت أن إنكلترا تُغرق الهنود بالضرائب فلا يبقى لهم غير الموت جوعاً، وإنها تخرب جميع مصانعهم لكي تتمكن السلع الإنكليزية من إيجاد أسواق لها عندهم، ثم قال: (إننا نسير إلى مصيبة لا مثيل لها في تاريخ العالم).

وقد يكون التشاؤم لحمة هذه النبوءة، ولكن صدقها يظهر عندما نعلم أن في ولاية مدراس وحدها ستة عشر مليون فقير كما جاء في الإحصاءات الرسمية، وإن السكان البائسين مكفّون في كل سنة بإنفاق أربعمئة مليون على الجيش وخمسين مليوناً

على الإدارة فضلاً عن إرسال ما تعدل قيمته خمسمائة مليون إلى إنكلترا (73).

### شأن الأوروبيين في الشرق — سبب إخفاقهم

درسنا ما كان للشرق من التأثير في الغرب بواسطة المسلمين، ولا يخلو من فائدة أن ندرس الآن تأثير الأوروبيين الحاضر في الشرقيين:

دلّت المشاهدة على أنّ هذا التأثير صفر في كل وقت، وكنا نرغب عن هذا الموضوع لو لم نر من المفيد أن نبحث في أسباب رفض الشرقيين لحضارة الغرب ومعتقداته رفضاً مستمراً مع اعتناقهم ما اتّاهم به الإسلام بسهولة.

ذلك للتباين الواضح بين حياة الشرقيين والأوروبيين وأفكارهم ومشاعرهم، لكن ذلك لا يكفي لإيضاح رفضهم لنا وازدراءهم البين لنظمنا ومعتقداتنا وأخلاقنا.

ومن العبث أن نكتم سبب تلك المشاعر، فهي ناشئة عن مكر الأمم المتمدنة وظلمها الأمم الأخرى التي هي غير متمدنة أو التي نعدّها ضعيفة الحضارة.

وسياسة الأوروبيين القائلة أنه لا يجوز أن يمشي على الأرض فريق من الهمج تؤدي إلى إبادة الأمم غير المتمدنة أي المتوحشة بسرعة، فيطارد الأوروبيون سكان

73 — قدر المبلغ الذي قبضته إنكلترا من الهند منذ عشرين سنة بعشرة مليارات، وذلك عدا النقد الذي ينفق لتموين الفاتحين الذين يأخذ كل واحد منهم في المستعمرة راتب وزير أو أمير، وقد حددت مدة إقامة الموظف الإنكليزي في الهند بخمس سنين على العموم، لعدّها كافية لإثرائه، ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة الكاتب الإنكليزي مستر هندمان الآتية: (إن من الأمور المخيفة، حقاً، أن تكره الولايات الشمالية الغربية الهندية على إصدار حبوبها مع موت 300.000 من أبنائها جوعاً في بضعة أشهر)، ثم ذكر هذا المؤلف الإنكليزي أنه مات في سنة 1877م في مقاطعة مدراس وحدها 935.000 نفس كما جاء في التقارير الرسمية، ولم يحدث غير ما يزيد هذه الحالة سوءاً لما ينجم عن ضرورة دفع الضرائب الثقيلة من أضعاف خصب الأرضين الزراعية بسرعة.

ولا ريب في صحة الإحصاءات التي نشرها (مستر هندمان) في مجلة القرن التاسع عشر تحت عنوان (إفلاس الهند)، والمسوغ الوحيد الذي قيل عن الجزية السنوية التي تدفعها الهند إلى إنكلترا، ومقدارها خمسمائة مليون، هو قول مجلة الأسبوعين: (أنها ثمن تمتع الهند بحكومة منظمة محبة للسلام)، ويرى الهندوس، حتماً، شيئاً من المبالغة في وصف حكومة الهند بمحبّتها للسلام مع موت هندوس يزيد عددهم كثيراً على عدد الذين يقتلون في أشد الحروب سفكاً للدماء، وذلك بفعل الجوع في كل سنة.

أمريكا الأصليين كما يطارد الصيادون الأرانب، ويزول أصحاب الجلود الحمر من أمريكا بسلب أراضي الصيد منهم وحصرهم في مناطق جديبة لا يخرجون منها بفعل الجوع إلا ليجدّوا كما يجدّ البط، ويباد همج أقيانوسيا، ولم يبق من أهل تسمانيا الأصليين أحد (74).

ولم تكن سياسة الأوربيين نحو الأمم الشرقية المتمدنة، كالصينيين والهنود مثلاً، أحسن كثيراً من سياستهم نحو أولئك الهمج، وإذا أغضينا عن محاربتنا لهم بما ليس فيه ذرة من الإنصاف نرى أن سلوكنا اليومي تجاههم يكفي لجعلهم شديدي العداوة لنا، وكل من يوغل في الشرق يعلم أن أحقر الأوربيين يعتقد أن كل شيء مباح له في الشرق (75)، وإذا لم يستغل الشرقي رأساً، كما يستغل في الهند بما يتقل به كاهله من الضرائب التي تنزع آخر كسرة خبز منه فإنه يستغل بالحيل التجارية التي تتم بوقاحة دالة على ضعف الطلاء لدى رجالنا المتمدنين، ويفقد الأوربي في الشرق

74 — أحيل القارئ إلى الحوادث التي ذكرتها في كتابي الأخير: (الإنسان والمجتمعات) الصفحة 91 من المجلد الثاني، ليتبين سياسة البيض في أفريقيا وإقيانوسيا، وإنما أورد هنا الأسلوب الدقيق الذي يسير عليه ربانة السفن الإنكليزية لجمع ما يحتاجون إليه من العمال في جزر الملايو، وهو أنهم يجتنبون بحيل، ولا سيما بمظاهر ودية، أناساً كثيرين من أهل هذه الجزر ويضربون رقابهم ويأخذون، لزمن معين، من رؤساء القبائل المعادية عدداً من العمال في مقابل كل رأس من أولئك، وإن كانوا لا يعيدون إلى هؤلاء العمال حريتهم أبداً خلافاً للعهود، فأعمال مثل هذه هي التي جعلت العالم الطبيعي كاترفاج يصل في كتابه عن الجنس البشري إلى قوله: إنه لا يجوز للعرق الأبيض الأوربي أن يلوم أكثر الشعوب توحشاً من ناحية احترام حياة الإنسان، فليرجع العرق الأبيض قليلاً إلى تاريخه الخاص، وليذكر بعض الحروب والوقائع التي كتبها بحروف من دم، وليتذكر على الخصوص، ماذا صنع مع أخواته المتأخرات وماذا أسفرت عنه خطواته حول العالم من الإفقار، وليتذكر جرائم القتل التي اقترفها بدم بارد لاعباً لاهياً في الغالب، وليتذكر اصطياده للإنسان بانتظام كما يصطاد الوحوش الضارية، وليتذكر استئصاله أمماً ليفسح المجال للمستعمرين الأوربيين، وليعترف أن احترام حياة الإنسان إذا كان سنة مقدسة عامة فإنه لم يرى أن شعباً انتهك حرمتها بفظاعة مثله).

75 — أدعو من يريد أن يطلع على رأي الفريق المثقف من الشرقيين في الأوربيين إلى قراءة المقالة الممتازة التي نشرها في المجلة العلمية سنة 1878م مسيو مازانا مايدا المفوض الياباني العام لدى المعرض الباريسي الكبير الأخير، فمع ما حاول به ذلك المفوض من كتمان رأيه بسبب منصبه الرسمي وجنسية تلك المجلة نراه قد أوضح العمل المخرب الذي يقترفه الإنكليز نحو الصينيين بقصد ابتزاز أموالهم، ثم ذكر: (أن الأجانب في مدن اليابان وأريافها لا يحترمون من يجاورهم ولا يبالون بارتكاب أي إتلاف فيما يملكه سواهم... غير مكترئين للقوانين ولا للطبائع).

كل صفاته ويهبط أخلاقاً إلى ما هو أدنى من مستوى الشعوب التي يستغلها، ولو حوكم التجار الأوروبيون من أجل صلاتهم التجارية بالشرق على حسب قوانين بلادهم ما تقلّت إلا أقلّهم من أكثر العقوبات شيئاً.

إذن لا يخلو من سبب ما يحمله الشرقيون من الرأي السيئ في شرفنا وأخلاقنا، وستكون قصة علاقات أوربا المتمدنة بالصين في القرن التاسع عشر من الميلاد من أسوأ صفحات تاريخ حضارتنا، وقد يُدعى حداثتنا، ذات يوم، إلى التكفير عنها بثمن غال، وكيف يفكر في المستقبل في أمر حرب الأفيون الدامية التي أكره الإنكليز فيها بلاد الصين، وذلك بقوة المدافع، على إدخال هذا السم القاتل الذي أرادت حكومتها تحريمه لما راعها من أخطاره، حقاً إن فائدة إنكلترا من تجارة الأفيون مائة وخمسون مليوناً في كل سنة، ولكن عدد الوفيات السنوية في بلاد الصين بفعل استعمال الأفيون ستمائة ألف نفس كما جاء في إحصاءات الدكتور كريستليب المعتدلة على الخصوص، وهنا نسأل: أليس من الحق أن يعلم الصينيون أبناءهم وصف الغربيين بالبرابرة بعد الذي رأوا من حرب الأفيون الطاحنة وما أسفرت عنه هذه الحرب من إبادة تجارته كرهاً؟ فما يصنعون بحضارة غير ملائمة لأفكارهم ومشاعرهم واحتياجاتهم جديرة لذلك بأن يرفضوها؟ وما فائدتهم من ترك نظمهم الموروثة وحياتهم السعيدة القليلة الاحتياجات وانتحالهم لحياتنا المثقلة ولمنازعاتنا التي لا يُشفى لها غليل، ولنظام طبقاتنا الاجتماعية متفاوتة ولعيشنا الكريه في المصانع ولكل ما تتطلبه الحضارات الزاهية من مختلف الاحتياجات؟

ولم ينشأ عن افتتاح المسلمين للشرق مثل هذه الشرور، فقد كانت الأمم التي قهروها شرقية مثلهم، وكانت مشاعرهم واحتياجاتهم وطرق معيشتهم مماثلة لما كان عندهم، ولم ينشأ عن استيلاء المسلمين أو المغول أو الترك على الهند وبلاد فارس ومصر العليا من التغييرات الأساسية كما ينشأ عن انتحال أهل هذه البلدان للحضارة الحديثة، ولا بدّ من أن تتال يد التبديل التام حياة هذه الأمم الشرقية عند اتصالها بالأوروبيين، ولكن عجز الأمم الشرقية عن منافسة الأوروبيين يؤدي حتماً إلى مثل ما صار إليه الهندوس من البؤس الأسود والثورات الشديدة التي يولدها اليأس.

تبيّن مما تقدم، وذلك بدرجة الكفاية، تأثير الغرب المخرب في الشرق في الوقت الحاضر، ولا يوجد ما يسوّغ به الأوروبيون شرهم وطمعهم سوى المبدأ الذي لم يعرف التاريخ غيره، وهو حكم الأقوى. فإمّا غالب وإمّا مغلوب، وإمّا صياد وإمّا قنيسة، وهذه هي سنة الأزمنة الحديثة، ولا قيمة لكلمة العدل والإنصاف في علاقات الأمم بعضها ببعض.

### أسباب عظمة المسلمين وانحطاطهم

#### حال الإسلام الحاضرة

#### 1. أسباب عظمة المسلمين

نختم تاريخ حضارة المسلمين بتلخيصنا أسباب عظمتهم وانحطاطهم في نظرة شاملة، فنقول:

إن الزمن الذي ظهر فيه المسلمون من العوامل التمهيدية لقوتهم، وإن لعامل الزمن التمهيدي أهمية كبيرة في حياة الأفراد والأمم، وإن هناك صفات لا تبرز إلا في وقت معين، ولد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في أحسن الأوقات، وقد رأينا أن العالم المسنّ كان متصدعاً فيه من كلّ جانب، ولم يتوجّب على أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إلا أن يهزّوه ليتساقط.

بيد أن القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة، ويدلّ عجز البرابرة الذين ورثوا حضارة الرومان في الغرب، كما ورثها العرب في الشرق، على ما في إقامة الحضارات من المصاعب، وإذا كان ذلك العامل التمهيدي مساعداً على إنشاء دولة جديدة وحضارة جديدة فلا بدّ من عوامل أساسية أخرى لإقامتها مما نعيّنه الآن.

وتأثير العرق من أهم تلك العوامل التي نذكرها:

رأينا أن من أهمّ خصائص العرق أن يتصف أفراداه على الخصوص بمشاعر وقابليات متماثلة وأن يوجّهوا جهودهم نحو غرض واحد، وهذه المشاعر المتماثلة التي تكوّنت بتعاقب الوراثة، أي التي تتألف الأخلاق القومية من مجموعها، هي تراث ماضٍ ساعد أجدادنا على تكوينه فساعد على تكوينه أيضاً من أجل ذريّتنا،

وهذه المشاعر، وإن كانت تختلف بين شعب وشعب لا تختلف إلا قليلاً في الشعب الواحد.

ونحن إذا تركنا جانباً ما قلناه عن ذكاء المسلمين وحماسهم، واستعدادهم الفني والأدبي وما إلى ذلك من الصفات التي لولا وجودها فيهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى درجة الحضارة، فإننا نذكر صفاتهم الحربية المتأصلة التي يمكن اتخاذها مثلاً بارزاً على قولنا أنه ينشأ عن القابليات الواحدة نتائج تختلف باختلاف الأحوال.

ولم تكن جزيرة العرب، قبل ظهور النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، سوى ميدان حرب دائم واسع لما تأصل في العرب من الطباع الحربية، ولما جاء الإسلام وآلف بين قلوبهم وجّهوا جميع قواتهم إلى البلاد الأجنبية، وكانت طبائعهم الحربية من أسباب انتصاراتهم.

وهناك أحوال وعوامل أخرى كثيرة لها تأثير عظيم أيضاً.

ونذكر على رأس هذه العوامل التي ندرسها، ذلك العامل الذي توحدت بفضلها جميع القبائل العربية المنقسمة، وهو الدين الذي جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، فقد منح هذا الدين ما كانت تحتاج إليه أمم من المثل العليا المشتركة التي اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا بها للتضحية بأنفسهم في سبيلها.

وكان يمكن أن تُعْمِي فتوح المسلمين الأولى أبصارهم وأن يقتربوا من المظالم ما يقتربه الفاتحون عادةً ويسبئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخراً، ولكن المسلمين اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية (76) ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً، فعاملوا، كما رأينا، أهل سورية ومصر وإسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فاضحين

76 - وذلك بفضل تعاليم النبي (صلى الله عليه وآله).

عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل المسلمين ولا ديناً مثل دينهم.

وما جهله المؤرخون من حلم المسلمين الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان المسلمين عن مسرح العالم.

وهناك أسباب أخرى غير تسامح المسلمين وحلمهم ساعدت على انتشار دينهم ونظمهم المشتقة منه، وذلك أن هذه النظم كانت من البساطة، في الحقيقة، ما لامت معه احتياجات طبقات الأهلين الوسطى البسيطة أيضاً، وإذا حدث احتياج اتفاقاً وكانت هذه النظم غير ملائمة لهذه الاحتياجات عدّ لها المسلمون كما تقضي به الضرورة، وبهذا نفس السرّ في اختلاف نظم المسلمين في بلاد الهند وفارس وجزيرة العرب وأفريقيا ومصر اختلافاً كبيراً في بعض الأحيان مع أن القرآن واحد.

## 2. أسباب انحطاط المسلمين

يمكن الاستناد إلى كثير من العوامل التي ذكرنا أنها من أسباب عظمة المسلمين في بيان انحطاطهم، فإن العرب لم يقدرُوا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشرعية الجديدة التي جاء بها النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها، وهي التي كان يمكنها وحدها أن تجمع القوى المبعثرة في جزيرة العرب، وقد بقي نير هذه الشريعة الحازم طيباً ما بقيت نظم النبي (صلى الله عليه وآله) ملائمة لاحتياجات أمته، فلما أصبح تعديل هذه النظم (من دون رعاية مطابقته للقرآن والسنة النبوية وسيرة الأئمة من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله)) ضربة لازب، بسبب مبتكرات الحضارة، وكان نير التقاليد من الثقل بحيث لا يمكن زحزحته.

وتجلّى محذور عدم القدرة على التعديل الكبير، على الخصوص، في نظم

المسلمين السياسية التي تقضي بأن يقبض على زمام الدولة وليّ أمر واحد (هذا في زمن الإمام المعصوم (عليه السلام) أمّا في غيره فيجب أن يكون القابض على الزمام شورى الفقهاء المراجع) يجمع في يده جميع السلطات العسكرية والدينية والمدنية، فهذه النظم وإن كانت وحدها تساعد على تأسيس دولة عظيمة بسهولة، تعدّ أقلّ النظم صلاحاً لبقائها<sup>(77)</sup>، والدول الكبرى المطلقة التي تكون جميع السلطات فيها قبضة رجل واحد، وإن كانت ذات قدرة عظيمة على الفتح، لا ترتقي إلا إذا كان على رأسها رجال عظماء، فإذا افتقدتهم تداعى كل شيء دفعة واحدة. ثم صار الانقسام في دولتهم.

وكان لهذا الانقسام نتائج ضارة ونتائج نافعة، فأما نتائجه الضارة فهي أنه أضعف سلطان المسلمين الحربي، وأما نتائجه النافعة فهي أنه مهّد السبيل لتقدم الحضارة، والحق أن مصر والأندلس ما كانتا لتبلغا ما وصلتا إليه من الرقي والرخاء لو لم تتفصلا عن الدولة الكبرى، وأنه ما كان ليتفق لهما، في حالة بقائهما من أجزاء تلك الدول، غير مصير الولايات العثمانية التي يعزل ولايتها عزلاً مستمراً فلا يصرفون همهم إلا إلى الاغتناء منها بسرعة لما لا يرون لأنفسهم فوائد في تقديمها. أجل، إن تقدم بعض تلك الدويلات المستقلة كان عظيماً، ولكن عاقبتها كانت كعاقبة الدول القديمة التي استندت إلى عدد الجنود وقيمتهم في سلطانها العسكري بدلاً من أن تستند بعض الاستناد إلى إدارة حربية مهمة كما هو واقع الآن، والتي كانت تنهار أمام أول غارة أجنبية.

لقد تم الكتاب ولنلخصه في بضع كلمات فنقول:

إن الأمم التي فاقت المسلمين تمدناً قليلة للغاية، وإننا لا نذكر أمة كالمسلمين حققت من المبتكرات العظيمة مثل ما حققوا، وإن المسلمين أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا ديناً لا يزال تأثيره أشدّ حيوية مما لأي دين آخر، وإنهم أنشأوا من الناحية السياسية دولة عظيمة من أعظم الدول التي عرفها التاريخ،

77 - هذا فيما لو قبض على الزمام شخص واحد غير المعصوم (عليه السلام) فإنه حينئذ يكون من أقلّ النظم صلاحاً للبقاء.



وأنهم مدّثوا أوربا ثقافة وأخلاقاً.

غوستاف لوبون

\* \* \*

هذا آخر ما أردنا تلخيصه في هذا الكتاب مع العلم أن المؤلف أهمل جوانب كثيرة في حضارة الإسلام ومن أهم تلك الجوانب، الجانب الديني الذي هو سرّ نجاح المسلمين حين طبقوا الإسلام وسر سقوطهم حين تركوا تطبيق الإسلام والله المسؤول أن يوقظ المسلمين من سباتهم ليعيدوا مجد الإسلام ومجد بلاد الإسلام وهو الموفق المستعان.

سبحان ربك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

1389هـ